جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي

معهد العلوم الإسلامية

السنة أولى جذع مشترك علوم إسلامية

محاضرات مقياس:

تاريـــخ الخلـــفاء

موجهة لطلبة السنة أولى جذع مشترك علوم إسلامية

أستاذ المقياس:
الدكتور الجباري عثماني

مدخل

نشأة نظام الخلافة في الإسلام

1- تعريف الخلافة لغة واصطلاحا:

الخلافة لغة: مصدر خَلَفَ يخلف خلافة، أي بقي بعده أو قام مقامه، والخلافة: معروفة خلف فلان فلانا فهو خليفة له، والجمع خلفاء، وهو خلّيف له أيضا. والجمع من خليفة خلائف، ومن خلّيف خلفاء. والخِلِّيفى: الخلافة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا الخِلِّيفى لأذّنت.

وأما اصطلاحا: فالخلافة والإمامة، تدلان على معنى واحد عند أهل السُّنَّة. عرّفها الماوردي بأنها: "رئاسة عامة في أمر الدّين والدنيا، خلافة عن النبيّ ﷺ"، أو هي عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة القوانين الشرعية، وحفظ حوزة المِلّة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة. وعرّفها ابن خلدون، قال هي: "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدّين وسياسة الدنيا به، تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماما.

2- منصب الخليفة، النشأة والظهور:

تعددت صور نظام الحكم في جزيرة العرب قبيل الإسلام، فقد عرف العرب الملكية في اليمن، وفي مملكة كندة، ولكن النظام القبلي كان أحد الأنظمة الاجتماعية التي لازمت حياة البداوة، وكان زعيم هذا النظام شيخ القبيلة؛ الذي يُختار ضمن شروط منها: عراقة الأصل، والنضج، والكرم والشجاعة، والحِلم، وكان لشيخ القبيلة مجلس استشاري من عقلاء القبيلة، وليست دار النّدوة في مكة المكرّمة إلا شكلا من أشكال المجالس الاستشارية.

وأما في الإسلام، فقد كانت فكرة الأمة الواحدة، والدولة الواحدة التي تسودها أحكام الشريعة في داخلها، والرغبة القوية في تبليغ رسالة الإسلام خارج حدودها، قد تمكنت من النخبة المسلمة عندما واجهت الحادثة الأليمة التي تمثلت بوفاة الرسول ﷺ، وقد عبّر أنس بن مالك عن أثر الحادث في النفوس: "لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا". ولفرط الذهول كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ وليبعثنه

الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، ولكنه أُرسل إليه كما أُرسل إلى موسى بن عمران، فلبث عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم، وأخذ بقائم سيفه وقال: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله إلا ضربته بسيفي هذا".

وطلب النّاس لسالم بن عبيد الأشجعي أن يدعو أبا بكر ﷺ، فرآه في المسجد فأخبره خبر الوفاة، فدخل أبو بكر على عائشة وكشف عن وجه النبيّ ﷺ وهو مسجّى ببرد حبرة، ثم قبّله وبكى، وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتا، ثم خطب النّاس معلنا الوفاة: "ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، واستشهد بالقرآن، قال تعالى: ﴿**وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مّات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ [آل عمران، 144]. وقد ظهر في الموقف رجحان علم الصدّيق، ورباطة جأشه، وشجاعته، وجرأته، وقوة رأيه.

ورغم الذهول الذي أصاب النخبة وعامة المسلمين، فإن أهمية إقامة السلطة في الإسلام جعلتهم يتحركون في اتجاه اختيار الحاكم قبل أن ينتهوا من تشييع الجسد الشريف إلى مثواه، وقد يقف خلف هذا التحرك السريع إدراك النخبة بخطورة الأوضاع المحيطة بالكيان الإسلامي الذي مضى عليه عقد واحد من السنين، تأسست فيه الدولة واتسعت رقعتها وكسبت أنصارا لها داخل المدن الحجازية الثلاث خاصة، في حين بقيت القبائل الكبيرة في أعدادها والمنتشرة في البوادي والصحراء تحيط بالمراكز الإسلامية من كل مكان.

وكانت الضوابط الشرعية لاختيار المسؤول الأول للدولة تنحصر في قرشيته ومكانته التي يحددها قدمه في الإسلام، وخدمته للدعوة وللدولة، ومنزلته لدى النبيّ ﷺ، وإمكان إجماع الأمة أو أكثرها على شرعية توليه لرئاسة الدولة وخلافة النبوة. وكانت النخبة تتمثل في المهاجرين الذين تطلعوا إلى أبي بكر ﷺ، وبعضهم كان منشغلاً مع علي ﷺ بتشييع النبيّ ﷺ. وفي الأنصار الذين التفوا حول زعيم الخزرج سعد بن عبادة؟

أ– المهاجرون والأنصار في مؤتمر السقيفة:

السقيفة: تعني الظلّة، وهي شبه البهو الواسع الطويل السقف، كان لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج ظلة يجلسون تحتها هي دار ندوتهم لفصل القضايا، تقع في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي، بين مساكن قبيلة بني ساعدة الخزرجية، اشتهرت بسقيفة بني ساعدة. وكان دار

سعد بن عبادة قريبا من هذه الظلة، وقد اجتمع فيها الانصار؛ ليبايعوا سعد بن عبادة خليفة بعد وفاة النبيّ ﷺ. فالأنصار هم السكان الأصليون للمدينة، وقد آووا المهاجرين ونصروا الإسلام بأرواحهم وأموالهم، وهيأوا له فرص الاستقرار والانتشار، وعرفوا بإيثارهم وصبرهم وجهادهم وتضحياتهم، أفلا يكون لهم الحق في رئاسة الدولة ورعاية الإسلام.

ولما بلغ خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى المهاجرين؛ فانطلق أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى السقيفة حيث الأنصار، وانضم إليهما أبو عبيدة بن الجراح في الطريق، قال عمر بن الخطاب ﷺ: "فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان، وهما؛ عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينّهم؛ فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة فقلت: ماله؟ قالوا: يوعك.

وقد حدث نقاش طويل بين المهاجرين والأنصار حول أحقية كل طرف بتولي الخلافة. وقد بيّن أحد الأنصار أحقيتهم بقوله: "أما بعد: فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفَّت دافَّة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر". أما المهاجرون فتكلم عنهم أبو بكر الصديق ﷺ بحلم ووقار وبديهية، فقال: "ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا ... يا معشر الأنصار إنا والله ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحيّ من قريش بمنزلة من العرب ليس بها غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام".

وقد طرح عدد من الأنصار فكرة تعيين أميرين أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار، ولكن أبا بكر ﷺ قال: "لا، ولكنّا الأمراء وأنتم الوزراء"، وقال عمر: "سيفان في غمد واحد! إذا لا يصلحان". وهنا تدخل كاتب الوحي زيد بن ثابت وهو من الخزرج فقال: "إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، ونحن أنصارهم كما كنا أنصار رسول الله ﷺ". فقال أبو بكر: "جزاكم الله خيرا من حيّ يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم". وهكذا فإن

الخزرج هم الذين قاموا بالتنازل إتباعا للحق ومراعاة للمصلحة الإسلامية، ولم يكن التنازل بسبب عدم رغبة الأوس في تولي الخزرج الخلافة، كما يزعم أبو مخنف.

ب – الترشيح والبيعة:

لقد جرى الترشيح بعد أن استقر الرأي على استخلاف أحد المهاجرين، فرشح أبو بكر ﷺ أحد اثنين، عمر وأبي عبيدة. فقال عمر ﷺ: "بل نبايعك أنت، فأنت سيّدنا وخيرنا، وأحبّنا إلى رسول الله ﷺ". وذكّر بفضل أبا بكر قائلا: "ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فأيّكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر"، وذكّرهم بموقفه في حادثة الهجرة، ثم بايعه عمر وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار. ولم يكن أبو بكر ﷺ حريصاً على الإمارة بل كان كارهاً لتوليها لما يعلمه من عظم المسؤولية أمام الله تعالى، وخوفه من التقصير فيها، رغم أن الصحابة كانوا يعلمون أنه أحقهم بها، وأقواهم عليها، وقد صارح أبو بكر المسلمين بمشاعره مرارا: "والله ما كنتُ حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت راغبا فيها، ولا سألتها الله عز وجل في سرّ ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحة..".

وقد عُرفت بيعة أبي بكر ﷺ في السقيفة بالبيعة الخاصة، وكانت يوم الاثنين 12 من شهر ربيع الأول سنة 11هـ، وفي اليوم التالي الثلاثاء خرج إلى المسجد فبايعه الناس فيما عُرف بالبيعة العامة بعد خطبة ألقاها عمر بن الخطاب اعتذر فيها عن موقفه من حادثة الوفاة النبوية وإنكارها، وبين مكانة أبي بكر في الصحبة والهجرة، وأبو بكر صامت لا يتكلم، حتى انتهى عمر من خطبته وطلب من أبي بكر الصعود إلى المنبر لتلقي البيعة من الناس. وعن طريقة البيعة، يجتمع عليه العصابة (المجموعة) فيقول لهم: "بايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمير". وبعد البيعة العامة هذه، خطب أبو بكر في الناس خطبة وجيزة، بيّن فيها علاقة الحاكم بالمحكومين.

ومن أبرز الغائبين عن البيعة للخليفة الجديد علي بن أبي طالب ﷺ، فتدل الروايات الصحيحة على غضبه لعدم استشارته في أمر الخلافة، بل تشير رواية الصحيحين على أن بيعته تأخرت ستة أشهر؛ لعدم استجابة الصدّيق لطلب فاطمة بنت الرسول ﷺ أن ترث "ما أفاء الله على رسوله بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر"، واحتج أبو بكر بحديث: «لا نورث ما تركنا

صدقة». وقد جمع ابن كثير وابن حجر بين الروايات الصحيحة، بأن علياً بايع أول الأمر مع النّاس، ثم بايعه بعد وفاة فاطمة تأكيدا للأولى وإزالة لما حدث من جفوة؛ بسبب الاختلاف حول الميراث.

خلافة أبي بكر الصديق ﷺ
11– 13هـ/632– 634م

1– اسمه ولقبه وصفته ﷺ:

عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي. كنيته: أبو بكر، ولقبه: عتيق، والصدِّيق، وقيل لُقّب بـ "عتيق"؛ لأنه كان جميلاً، أو لعتاقة وجهه، وقيل قديم في الخير، وقيل: كانت أم أبي بكر لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت، فقالت: اللهم إن هذا عتيقك من الموت، فهبه لي. ولُقّب بـ "الصديق"؛ لأنه صدّق النبيّ ﷺ، وبالغ في تصديقه كما في صبيحة الإسراء وقد قيل له: إن صاحبك يزعم أنه أُسري به، فقال: إن كان قال فقد صدق، وقد سمّاه الله صديقا فقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر، 33]، جاء في تفسيرها، الذي جاء بالصدق هو النبيّ ﷺ، والذي صدّق به هو أبو بكر ﷺ. وسمّاه النبيّ ﷺ "الصدّيق"، روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أن النبيّ ﷺ صعد أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فقال: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان». وكان أبو بكر ﷺ يُسمى أيضا "الأوّاه" لرأفته ورحمته بالنّاس، والأتقى. ولد ﷺ بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر.

كان أبو بكر ﷺ أبيض نحيفاً، خفيف العارضين، معروق الوجه، ناتئ الجبهة، وكان يخضب بالحناء والكَتَم. وكان رجلاً أسيفاً أي رقيق القلب رحيماً. وقد اشتهر في الجاهلية بحميد الأخلاق، وحسن المعاشرة، وامتناعه عن شرب الخمر، وعِلمه بأنساب العرب وأخبارها. واشتهر في الإسلام بسابقته إلى الدين، وجهوده الكبيرة في الدعوة إليه حيث أسلم على يده عدد من كبار الصحابة هم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله. وقد صحب النبيّ ﷺ في هجرته إلى المدينة، قال تعالى: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة، 40]، قال السهيلي: ألا ترى كيف قال: لا تحزن ولم يقل لا تخف؛ لأن حزنه على رسول الله ﷺ شغله عن خوفه على نفسه. وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك ﷺ أن أبا بكر الصدّيق ﷺ حدّثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في

الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. ولما أراد النبيّ ﷺ أن يدخل الغار دخل قبله لينظر في الغار؛ لئلا يُصيب النبيّ ﷺ.

وشهد المشاهد كلها مع النبيّ ﷺ. وكان يتاجر بالثياب وبلغ رأس ماله حين أسلم أربعين ألف درهم، أنفقها على مصالح الدعوة الإسلامية، وخاصة في عتق رقاب المستضعفين الأرقاء من المسلمين، وحمل بقيها وهي خمسة آلاف درهم معه حين الهجرة ووضعها تحت تصرف النبيّ ﷺ، وكان النبيّ ﷺ يقضي في مال أبي بكر، كما يقضي لرجل في مال نفسه. وقد بين النبيّ ﷺ مدى إفادة الإسلام من ذلك، «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر»، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة، وترك خوخة داره مشرعة على المسجد دون بقية الصحابة، وولاّه الصلاة خلال مرضه. وكان موضع مشورة النبيّ ﷺ، وقد صاهره بأن تزوج ابنته عائشة رضي الله عنها.

2– فضائله رضي الله عنه:

ما حاز الفضائل رجل كما حازها أبو بكر رضي الله عنه، أجمع أهل السنة أن أفضل هذه الأمة بعد نبيّها ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة، ثم باقي أهل الصحابة. وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نخيّر بين الناس في زمن النبيّ ﷺ، فنخيّر أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم. وروى البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالسا عند النبيّ ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته فقال النبيّ ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر». وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر - ثلاثا - ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثَمّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبيّ فجعل وجه النبيّ ﷺ يتمعّر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله والله أنا كنت أظلم - مرتين - فقال النبيّ ﷺ: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صَدَق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي – مرتين - فما أوذي بعدها.

ومن فضائله رضي الله عنه، أنه كان أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، قال عمرو بن العاص لرسول الله ﷺ: أي النّاس أحبّ إليك؟ قال: عائشة، قال قلت من الرجال؟ قال: أبوها. ومن فضائله رضي الله عنه أن

النبيّ ﷺ اتخذه أخاً له، قال رسول الله ﷺ: «إن مِن أمَنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته». وأخرج ابن سعيد عن الزهري قال: قال النبيّ ﷺ لحسان بن ثابت: «هل قلت في أبي بكر شيئًا؟» قال: نعم، فقال: «قل وأنا أسمع»، فقال:

الثاني اثنين في الغار المنيف وقــد طاف العدو به إذ صعد الجبلا

وكان حب رســول الله قد علموا من البرية لم يعــدل به رجلا

فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «يا حسان هو كما قلت».

3- أعمال أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

3-1- إنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه:

لقد استعمل النبيّ ﷺ أسامة بن زيد على جيش الشام، وأمره بالتوجه إلى الشام، وكان قد ضرب البعث على أهل المدينة ومن حولها، وفيهم عمر بن الخطاب، فتوفي النبيّ ﷺ ولم يسر الجيش، وارتدت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق، واشرأبت اليهود والنصرانية، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة؛ لفقد نبيّهم، وقِلتهم وكثرة عدوهم. فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء - يعنون جيش أسامة - جند المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبيّ ﷺ، فخاطب الناس، وأمرهم بالتجهز للغزو، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجُرف؛ فخرجوا كما أمرهم.

فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف، أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان معه في جيشه، إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع النّاس، وقال: إن معي وجوه النّاس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وحرم رسول الله ﷺ والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنّا، واطلب إليه أن يُولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة. فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر، فأخبره بما قال أسامة، فقال: لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته. قال عمر: فإن الأنصار تطلب

رجلا أقدم سنا من أسامة، فوثب أبو بكر، وكان جالسا، وأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله.

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم، وهو ماش وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله! فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تمحى عنه. فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له، ثم وصّاهم فقال: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله. وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ. فسار فسار أسامة في آخر شهر ربيع الأول حتى بلغ أرض الشام، وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت، وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوما، وقيل: سبعين يوما. وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعا للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه.

3-2- حركات الردة في خلافته ﷺ:

أ- انتشار الردة وأسبابها:

أدت وفاة الرسول ﷺ إلى تهديد وحدة الدولة الإسلامية الناشئة، حيث توسعت حركة الردة في أنحاء الدولة ماعدا الحجاز، وكان أخطرها حركة مسيلمة الحنفي، لكن بعدها عن المدينة وقرب حركات الردة الأخرى التي ابتدأت بوصول خبر وفاة النبيّ ﷺ إلى البوادي، فارتدت جموع غفيرة من بني أسد وغطفان وتميم والبحرين وعمان وحضرموت كما تجددت الردة في اليمن.. وكانت وقفة الصديق ﷺ أمام حركات الردة تتسم بالحزم وعدم التفريط بمصلحة العقيدة والدولة، فلم يتأخر في حشد الجيوش ولم يقبل المساومة في أحكام الإسلام ومحاولات بعض القبائل التخلص من دفع الزكاة. وكان عمر ﷺ يحاول أن يقنعه بالترفق في معاملة مانعي الزكاة؛ ليفرغ لأصحاب الردة الشاملة ممن عادوا إلى عبادة الأوثان أو اتبعوا أدعياء النبوة، فرفض أبو بكر ﷺ وجهة نظره بشدة،

وأوضح للصحابة رضوان الله عليهم: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فان الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا – أي معزة – كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها". وكان أن انشرحت صدور الصحابة رضوان الله عليهم للقتال، وعرفوا أنه الحق.

وقد وصفت عائشة رضي الله عنها وضع الدولة وبُناتها من الصحابة: "كأنهم معزى في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة"، وهو تصوير دقيق لحالة الخطر القصوى لإحاطة الأعداء بهم من كل جانب، ووصفت أبا بكر ﷺ وهو ممسك بزمام القيادة.. واضح الرؤية قوي العزيمة شديد المضاء صائب الرأي، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وسنائها".

وترجع الردة عن الإسلام؛ إلى عدم تغلغل الإيمان في القلوب لتأخر إسلامهم وبسبب قصر الزمن الذي تم فيه تبلغ الدعوة، وطبيعة الأعراب المتسمة بالجفاء مع ضعف المستوى الثقافي؛ مما جرّ إلى ضعف فقه تعاليم الدين، وخاصة بالنسبة للزكاة التي اعتبرها البعض ضريبة مهينة، واستثقلوا الصلاة والعبادات الأخرى، كما أن العصبية القبلية لازالت عميقة في تلك البلاد النائية ووسط نجد حيث ترى القبائل أنها أضخم عددا وعُددا من قريش وبالتالي فهي أولى بالزعامة، وعلى الأقل لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش. وقد ظهر زعماء طموحون تطلعوا إلى القيادة مقلدين الرسول ﷺ في أسلوب العمل والدعوة، ولم ينتبهوا إلى الفروق الكبيرة بين النبوة الصادقة وانتحالها لأغراض شخصية. ومن هنا كان ادعاء النبوة من قبل زعماء الحركات الانشقاقية.

ب– محاربة مانعي الزكاة:

قد تقدم أن رسول الله ﷺ لما توفي ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم النفاق بالمدينة، وعظم الخطب واشتدت الحال، ونفذ الصديق جيش أسامة، فقل الجند عند الصديق، فطمعت كثير من الأعراب في المدينة وراموا أن يهجموا عليها، فجعل الصديق على أنقاب المدينة حراسا يبيتون بالجيوش حولها، فمن أمراء: الحرس علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود. وجعلت وفود العرب تقدم المدينة، يقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصديق، وذكر أن منهم من احتج بقوله تعالى: ﴿**خُذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إن صلواتك سكن لهم**﴾ [التوبة، 103]؛ قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وقد

تكلم الصحابة مع الصدّيق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألّفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم: ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه.

وقد بعثت قبائل أسد وغطفان وطئ وفودا إلى المدينة، فنزلوا على وجوه النّاس فأنزلوهم إلا العباس، فحملوا بهم إلى أبي بكر، على أن يُقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق وقال: لو منعوني عقالا لجاهدتهم، فردّهم فرجعوا إلى عشائرهم، فأخبروهم بقلة أهل المدينة، وطمعوهم فيها، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد وقال: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلا يأتون أم نهارا، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا فما لبثوا إلا ثلاثا حتى طرقوا المدينة غارة، وخلفوا نصفهم بذي حسى؛ ليكونوا ردءا لهم، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة، فبعث إليهم: أن الزموا مكانكم. وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو واتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حسى.

ت– المتنبئون ومراكزهم:

ت–1– الأسود العنسي باليمن:

كانت اليمن تابعة اسميا للإمبراطورية الساسانية، وكان قد أصبح للساسانيين نفوذ في اليمن منذ أن استعان بهم سيف بن ذي يزن لطرد الأحباش، فلما توفي سيف أصبح قائد الحامية الفارسية أميرا على اليمن، وتزوج الفرس من أهل اليمن وسُمي أولادهم بالأبناء. ولكن نفوذ الحاكم الفارسي كان محصورا بصنعاء وما حولها. في حين يتقسم بقية البلاد الأمراء المحليون ورؤساء العشائر، وهم في نزاع مستمر وخاصة القبائل الكبيرة أزد شنوءة (بنو الحارث والنخع وبجيلة وخثعم وعك والأشاعرة) وتسكن عند الساحل، ومذحج وهمدان وتسكن الهضبة في الداخل.

وقد كان خروج الأسود العنسي - على الصحيح - قبل حجة الوداع في العام العاشر، وكانت أول ردة في الإسلام، ودامت أربعة أشهر. وينتسب الأسود إلى عنس من مذحج التي تعد أكبر القبائل اليمانية، وكان من كهف خبان قرب نجران، وعرف بذي الخمار وبرحمان اليمن، وكان كاهنا، وادعى النبوة، وأيّدته بعض قبائل مذحج، واحتل نجران ثم صنعاء حيث قتل واليها شهر بن باذام، وتظاهر زعماء الأبناء بالانضمام إليه. وقد اضطر معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وأتباعهما إلى الانسحاب إلى حضرموت، كما أخرج أهل نجران عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن

العاص حيث عادا إلى المدينة. وأخرج قيس بن المكشوح أحد قادة قبيلة مراد عامل المسلمين فروة بن مسيك، وانضم قيس بن المكشوح إلى الأسود العنسي، كما انضم إليه عمرو بن معد يكرب الزبيدي أحد زعماء مذحج، وانسحب من بقي على الإسلام من أهل اليمن مع الولاة المسلمين.

وتكمن قوة الأسود في ضخامة جسمه وقوته وشجاعته، واستخدم الكهانة والسحر، والخطابة البليغة، كان الأسود كاهنا شعباذا، وكان يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب من سمع منطقه، كما استخدم الأموال للتأثير على الناس. ومثل هذه الصفات تجعله مشهورا في قومه. وقد أثار الأسود موضوع أخذ الزكاة من اليمن، فكتب إلى العمال المسلمين في مناطق اليمن: "أيها المستوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه". وقد طلب النبيّ ﷺ من المسلمين المجتمعين في نجران وحضرموت أن يقاوموا الأسود، وقد أفاد معاذ بن جبل من الانشقاق في حركة الأسود حيث أن الأبناء لم يكونوا مخلصين له وكذلك قيس بن المكشوح؛ فتمكنوا من قتله في قصره، وإعلان العودة إلى الإسلام.

ت–2– مسيلمة الكذاب باليمامة:

تقع اليمامة في شرقي الجزيرة العربية، وهيِ واد خصب تتوفر فيه المياه الغزيرة، وتزرع فيه الحنطة والشعير والذرة والنخيل، وتقوم فيه القرى حيث يستقر فيها بعض السكان الذين ينتمي معظمهم إلى بنيِ حنيفة وبعضهم ينتمي إلى بني بكر أو إلى بني تميم وخاصة شمال اليمامة. وقد دخلت بنو حنيفة في الإسلام وقدم وفدها إلى النبيّ ﷺ في المدينة في العام التاسع للهجرة ومنهم مسيلمة بن حبيب، وقد أعلن مسيلمة نبوّته في حياة الرسول ﷺ، ولعله فعل ذلك بعد عودته من الوفد، وكان قد تعاظم نفوذه بعد وفاة هوذة بن علي زعيم اليمامة عقب فتح مكة، وادعى أنه يوحى إليه واتخذ له محرابا ومؤذنا اسمه حجير وجعل الصلاة ثلاثة أوقات في اليوم في الصبح والظهر والعشاء، وحدد النسل بابن واحد، ويروي الجاحظ أن مسيلمة كان قبل ادعاء النبوة يدور في أسواق العرب يتعلم الحيل واختيارات النجوم والمتنبئين، حتى أحكم حيل السدنة والحواة وأصحاب الزجر والحظ ومذهب الكاهن العياف والساحر وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه. وقد نقلت المصادر عن مسيلمة ما ادعاه من آيات عارض بها القرآن، وأسلوبها ينم عن ركاكة. وقد التف حوله أكثر بني حنيفة فمنهم من تبعه جهلا وتصديقا وهم العوام ومنهم من تبعه عصبية وهم الخاصة، ولكن كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر.

تعاظم أمره بعد قدوم "الرجّال بن عنفوه" من المدينة إلى اليمامة، وكان الرجّال قد تعلم القرآن وتفقه بالدين، فلما رأى بني حنيفة يتابعون مسيلمة انسلخ من الإسلام وأظهر تصديقه لمسيلمة، فكانت فتنته للنّاس أعظم من فتنة مسيلمة. وراسل مسيلمة النبيّ ﷺ في أواخر العام العاشر بعد حجة الوداع قائلا: "إني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض"، ولما توفِي الرسول ﷺ زاد نفوذ مسيلمة وتحالف مع سجاح التميمية، بعد أن تزوجها، لكن هذا التحالف لم يدم طويلاً حيث انسحبت سجاح بقواتها من اليمامة بعد أخذ نصف خراجها. وقد أدرك أبو بكر الصديق رضي الله عنه خطر ردة بنِي حنيفة لقوتهم وكثرتهم ورخائهم واجتماعهم على مسيلمة.

ت–3– طليحة الأسدي شمال الحجاز:

كانت قبيلة غطفان التي تسكن شرقي خيبر تسيطر على شمال الحجاز بتحالفها مع قبيلة طيء ويهود خيبر، فلما سقطت خيبر سنة 7هـ بيد الرسول ﷺ، وأخذ الرسول ﷺ يوجه الحملات إلى الشمال، ضعف نفوذ غطفان، وحاول طلحة بن خويلد الأسدي أن يسيطر على شمال شبه الجزيرة عن طريق المحالفات بين قبيلة أسد وطيء وفزارة وهي أهم فروع غطفان، ثم ادعى النبوة في أواخر حياة الرسول ﷺ وأن ملكا يدعى ذو النون يأتيه بالوحي.

وقد سعى إلى مفاوضة الرسول ﷺ، وكان انشغال النبيّ ﷺ عنه سببا في تعاظم نفوذه، فلما كانت خلافة الصديق رضي الله عنه اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة، وأرسلت وفدا إلى المدينة بطلب من الصديق أن يعفيهم من الزكاة، لكنه رفض وقال: "لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه"؛ ولعله أدرك أن مطاليب الأعراب لن تقف عند حد، كما أنه ليس بوسعه إعفاؤهم من أحد أركان الإسلام. وقد اطلع الوفد على ضعف القوة العسكرية في المدينة عقب خروج حملة أسامة؛ لذلك تجرأت هذه القبائل على غزو المدينة.

3–3– بسط الأمن والقضاء على حركة الردة:

ومن أجل بسط الأمن في الدولة والقضاء على حركات الردة؛ اعتمد أبو بكر رضي الله عنه على أهل المدينة ومكة والطائف وما حولها من قبائل في تجهيز الجيوش للقضاء على المرتدين، فضلاً عن مساندة من بقي على الإسلام في مراكز الردة. وكان أول صدام مع المرتدين في خلافة الصديق رضي الله عنه مع قبائل فزارة وأسد التي استغلت غياب حملة أسامة عن المدينة، وحاولت غزو المدينة، وقد نظم أبو بكر رضي الله عنه حراسة المدينة، وألزم المسلمين بحضور الصلاة في المسجد النبوي استعدادا للطوارئ، ثم

خرج بالمسلمين إلى ذي القصة على بريد من المدينة من ناحية نجد حيث صد أول هجوم قامت به عبس وذبيان على المدينة بعد أكثر من شهر من خروج أسامة من المدينة. وبعد أيام قدم أسامة فاستخلفه أبو بكر ﷺ على المدينة؛ وخرج لملاقاة عبس وذبيان بالربذة فهزمهم، ولما استراح جند أسامة عقد أبو بكر ﷺ أحد عشر لواءً لقتال المرتدين وأمر عليها الأمراء وهم:

- خالد بن الوليد، ووجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، ثم إلى مالك بن نويرة في تميم.
- عكرمة بن أبي جهل، إلى مسيلمة الكذاب، ثم إلى عمان.
- المهاجر بن أبي أمية، على اليمن للقضاء على قيس بن عبد يغوث المكشوح ثم إلى حضرموت للقضاء على ردة كندة بقيادة الأشعث بن قيس.
- خالد بن سعيد بن العاص، إلى مشارف الشام.
- عمرو بن العاص، إلى قضاعة في الشمال.
- حذيفة بن مِحْصن الغلفاني، إلى دُبا بعُمان.
- عرفجة بن هرثمة، إلى مهرة.
- شُرحبيل بن حسنة، لمساعدة عكرمة.
- طُريفة بن حاجِز، إلى بني سُليم.
- سُويد بن مقرِّن، إلى تهامة اليمن.
- العلاء بن الحضرمي، إلى البحرين.

وأرسل أبو بكر ﷺ الرسائل إلى سائر المرتدين، فسبقت الرسل الجيوش وتضمنت الرسائل تذكيراً ونصحاً وترهيبا وأن الأمان لمن أجاب ورجع إلى دينه. ثم تحركت الجيوش، بحيث استطاع خالد بن الوليد ﷺ القضاء على طليحة الأسدي؛ الذي فرّ إلى الشام حيث عاد فأسلم وحسن إسلامه. بعدها اتجه خالد ﷺ إلى ديار تميم، وقتل مالك بن نويرة بعد أسره، وبعد القضاء على ردة تميم سار نحو بني حنيفة، وكان عكرمة بن أبي جهل قد اندحر أمام بني حنيفة؛ فأمره أبو بكر ﷺ أن يتجه إلى عمان، وكذلك فشل شرحبيل بن حسنة في حربهم ثم انضم إلى خالد، وجمع مسيلمة أربعين ألفاً من قومه، وتقدم بهم لمواجهة خالد بن الوليد، فكانت موقعة عقرباء العنيفة، التي أبدى فيها المهاجرون والأنصار بسالة منقطعة النظير، وأبدى بنو حنيفة مقاومة وجرأة شهد بها خالد بن

الوليد، وتمكن المسلمون أن يصدّوا بني حنيفة إلى حديقة الموت، ثم اقتحموها عليهم وقتلوا مسيلمة والرجّال بن عنفوة ومحكم اليمامة وهم زعماء بني حنيفة.

وقد أسفرت المعركة عن استشهاد عدد كبير من المسلمين قدرتهم الروايات ما بين 1450 إلى 1700 شهيد، وفيهم ثلاثون أو خمسون من حملة القرآن؛ مما اعتبر حافزا لجمع القرآن في خلافة أبي بكر. وقد نتج عن حركة الردة والقضاء عليها إعادة وحدة الدولة الإسلامية، وتجريد البدو من سلاحهم وخيلهم خلال خلافة أبِي بكر ﷺ، ولا شك أنها أكسبت المسلمين المزيد من الخبرات القتالية والمعرفة بجغرافية الجزيرة العربية؛ مما أفادهم في حشد الجيوش في حركة الفتح الإسلامي.

5- استخلافه لعمر بن الخطاب ووفاته ﷺ:

لما مرض أبو بكر ﷺ، وأحس بدنو أجله، استشار الصحابة في أمر الخلافة بعده، حيث قال: "إني قد نزل بي ما ترون ولا أظنني إلا لمأتي؛ فأمَروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم عليكم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي"؛ فتشاوروا بينهم ثم جاءوه طالبين منه أن يرشح لهم واحدا، فسألهم: فلعلكم تختلفون؟ قالوا: لا، قال: فعليكم عهد الله على الرضا؟ قالوا: نعم. قال: فأمهلوني أنظر لله ولدينه ولعباده. ثم أرسل إلى كبار الصحابة لمشاورتهم: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهم من المهاجرين والأنصار؛ وقد أدت مشاوراته إلى نصيحة الأمة باستخلاف عمر بن الخطاب، فأمر عثمان بن عفان ﷺ بكتابة عهد بذلك.

وكانت وفاة أبي بكر ﷺ لثماني ليال بقين من جمادى الآخرة ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكان قد سمّه اليهود في أُرز، وقيل في حريرة وهي الحساء، فأكل هو والحارث بن كلدة، فكفّ الحارث وقال لأبي بكر: أكلنا طعاما مسموما سُمّ سنة. فماتا بعد سنة. وقيل: إنه اغتسل وكان يوما باردا، فحُم خمسة عشر يوما لا يخرج إلى صلاة، فأمر عمر أن يصلي بالناس. ولما مرض قال له الناس: ألا ندعو الطبيب؟ قال: قد أتاني وقال لي: أنا فاعل ما أريد. فعلموا مراده وسكتوا عنه، ثم مات. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وقيل: كانت سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال.

وأوصى ﷺ أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن، وأن يكفن في ثوبيه ويشترى معهما ثوب ثالث، وقال: الحي أحوج إلى الجديد من الميت، إنما هو للمهلة والصديد.

ودفن ليلا وصلى عليه عمر بن الخطاب ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ وكبر عليه أربعا، وحُمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة، وجعل رأسه عند كتفي النبيّ ﷺ وألصقوا لحده بلحد النبيّ ﷺ وجعل قبره مثل قبر النبيّ ﷺ مسطحا. وكان آخر ما تكلم به: توفني مسلما وألحقني بالصالحين، رضي الله عنه وأرضاه.

خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ

13- 24هـ/634- 644م

1- اسمه ونسبه:

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن العزَّى بن رياح بن عبد الله قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي العدوي، يجتمع نسبه مع النبيّ ﷺ في كعب، أمير المؤمنين، القرشي، الفاروق. وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أخت أبي جهل. ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية؛ فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، أي: رسولًا، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافرا أو مفاخرًا. وصفه البعض، بأنه كان أبيض شديد البياض تعلوه حمرة، يفوق الناس طوالا، أصلع أشيب، أعسر، أحور العينين، أشْنبَ الأسنان، وكان يُصفر لحيته، ويرجِّل رأسه بالحناء.

2- إسلامه وصحبته:

أسلم في شهر ذي الحجة في السنة السادسة من النبوة، وله سبع وعشرون سنة، أسلم بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة، كان إسلامه بعد إسلام حمزة بأيام، وذلك بعد خروج المسلمين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى. صحب النبيّ ﷺ حتى وفاته، وشهد المشاهد كلها، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو أحد السابقين الأولين، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد أصهار النبيّ ﷺ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم. ومما ورد في قصة إسلامه ﷺ، أخرج ابن سعد وغيره عن أنس ﷺ قال: خرج عمر متقلدًا سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة، فقال: أين تعمد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمدًا، قال: وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال: ما أراك إلى قد صبأت، قال: أفلا أدلك على العجب، إن ختنك وأختك قد صبئا وتركا دينك، فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب، فلما سمع بحس عمر توارى بالبيت، فدخل، فقال: ما هذه الهينمة (الكلام

الخفي)؟ وكانوا يقرءون طه، قالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: فلعلكما قد صبأتما، فقال له ختنه: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، فوثب عليه عمر، فوطأه وطأ شديدًا؛ فجاءت أخته، لتدفعه عن زوجها، فنفحها نفحة بيد، فدمي وجهها، فقالت، وهي غضبى: وإن كان الحق في غير دينك، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال عمر: أعطوني الكتاب الذي هو عندكم، فأقرأه، وكان عمر يقرأ الكتاب، فقالت أخته: إنك رجس، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ ثم أخذ الكتاب، فقرأ طه حتى انتهى إلى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه، 14]، فقال عمر: دلّوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر خرج، فقال: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخمس: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام».

وكان رسول الله ﷺ في أصل الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وعلى بابها حمزة وطلحة وناس، فقال حمزة: هذا عمر إن يرد الله به خيرًا يسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينًا، قال: والنبيّﷺ داخل يوحى إليه، فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، فقال: «ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة»، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله. وفي بشرى إسلامه ورد عن ابن عباس ﷺ قال: لما أسلم عمر نزل جبريل، فقال: يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر. وعنه أيضا قال: أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب، وأخرج البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر".

وعندما أذن النبيّ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب، قال علي ﷺ: ما علمت أحدا هاجر إلاّ مختفيا إلاّ عمر بن الخطاب؛ فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه وتنكَّب قوسه، وانتضى في يده أسهما، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها، فطاف سبعا، ثم صلى ركعتين عند المقام، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، من أراد أن تثكله أمه، ويبتم ولده، وترمل زوجته، فلْيلْقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد.

تزوج عمر ﷺ عدة نساء وله منهن أبناء وبنات، ومجموع نسائه اللاتي تزوجهن في الجاهلية والإسلام ممن طلقهن أو مات عنهن سبع، وهن: جميلة بنت عاصم بن ثابت بن الأفلح، وزينب بنت مظعون، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وقريبة بنت أبي أمية، ومليكة بنت جرول، وأم

حكيم بنت الحارث بن هشام، وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأم كلثوم أخرى وهي مليكة بنت جرول. وكانت له أمتان له منهما أولاد، وهما: فكيهة ولهية. وجملة أولاده ﷺ ثلاثة عشر ولدا، وهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر، وعاصم، وعبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأوسط، وعبد الرحمن الأصغر وعبيد الله، وعياض، وحفصة، ورقية، وزينب، وفاطمة، رضي الله عنهم.

3- فضائله وأوائله ﷺ:

وأما عن الأحاديث الواردة في فضله فهي كثيرة، منها: أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبيّ ﷺ: «بينما أنا نائم في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ من جانب قصر، قلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرتك، فوليت مدبرا» فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟ وأخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبيّ ﷺ: «إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر». وأخرج ابن ماجه والحاكم عن أبي ذر قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إن الله قد وضع الحق على لسان عمر يقول به».

وقد اثنى الصحابة والسلف عن شخصه وعلمه وسطوته في الحق، قال أبو بكر الصديق ﷺ: ما على ظهر الأرض رجل أحبّ إليَّ من عمر، وقيل لأبي بكر في مرضه: ماذا تقول لربك وقد ولَّيت عمر؟ قال: أقول له ولَّيت عليهم خيرهم. وقال حذيفة: والله ما أعرف رجلا لا تأخذه في الله لومة لائم إلا عمر. قال معاوية ﷺ في زهد عمر: أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فتمرَّغنا فيها ظهرًا لبطن. قال النووي: شهد عمر ﷺ مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان ممن ثبت معه يوم أحد.

وفي شأن كراماته؛ رُوي عن ابن عمر ﷺ، قال: كان عمر يخطب يوم الجمعة، فعرض في خطبته أن قال: يا سارية الجبل، من استرعى الذئب ظلم، فالتفت الناس بعضهم لبعض، فقال لهم علي: ليخرجن مما قال، فلما فرغ سألوه فقال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وإنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه، قال: فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم، قال: فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علينا.

وأخرج مالك في الموطأ، أنه لما فُتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل يوم من أشهر العجم، فقالوا: يا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا

كان إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون أبدًا في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا والنيل لا يجري، قليلاً ولا كثيرًا، حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب له أن: قد أصبت بالذي قلت، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله، وبعث بطاقة في داخل كتابه، وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك ببطاقة في داخل كتابي فألقها في النيل، فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها، فإذا فيها: من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجرِ، وإن كان الله يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك، فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم، فأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة، فقطع الله تلك السنّة عن أهل مصر إلى اليوم.

وعن أوائله ﷺ، فقد رصد العسكري في كتابه الأوائل من بدايات الأمور والوقائع والحوادث للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ العديد من البدايات، والتي تفرد بها في الإسلام، فقال:

- أول من سُمى أمير المؤمنين.
- أول من كتب التاريخ الهجري عمر في ربيع الأول سنة 16هـ.
- أول من اتخذ بيت مال عمر.
- أول من سن قيام شهر رمضان جماعة سنة أربع عشرة.
- أول من حمل الطعام من مصر الى الحجاز.
- أول من عسّ بالليل.
- أول من حمل الدّرة وأدّب بها.
- أول من ضرب في الخمر ثمانين عمر.
- أول من حرّم المتعة عمر.
- أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد.
- أول من اتخذ الديوان.
- أول من فتح الفتوح ومسح السواد.

4- زهده وورعه، وخدماته لرعيته تواضعا ﷺ:

أ– زهده وورعه:

كان عمر ﷺ متواضعا في الله، خشن العيش، خشن المطعم، شديدا في ذات الله، يرقع الثوب بالأديم، ويحمل القربة على كتفيه، مع عظم هيبته، ويركب الحمار عريا، والبعير مخطوما باللّيف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحدا، وكان نقش خاتمه "كفى بالموت واعظا يا عمر"، قال عنه النبيّ ﷺ »أشد أمتي في دين الله عمر»، وعن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «إن لي وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض، فوزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر، وإنهما السمع والبصر».

وفي زهده، قال عمر ﷺ: لا يحل لي من مال الله إلا حلتان حلة للشتاء وحلة للصيف، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين. وعوتب عمر فقيل له: لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق؟ فقال: إني تركت صاحبيّ على جادة، فإن أدركت جادتهما فلم أدركهما في المنزل. وكان يلبس وهو خليفة جبة صوف مرقوعة بعضها بأدم، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدرة يؤدب بها الناس، وإذا مر بالنوى وغيره يلتقطه ويرمي به في منازل الناس ينتفعون به.

ومن شدة ورعه ﷺ، أنه منع أهله من جرّ المنافع؛ بسبب صلة القربى به، وثبتت حادثتان في ذلك، الأولى مع ابنه عاصم، والثانية مع ابنيه عبد الله وعبيد الله، فأما عاصم عندما كان غلاما صغيراً التقط درهما من حجرة كان فيها مال جديد؛ أمر عمر بإدخاله إلى بيت المال، ثم رأى درهما بيد عاصم فحقق معه وانزعه منه وأرسله إلى بيت المال. وأما عبد الله وعبيد الله، فخرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري والي البصرة، فأعطاهما مالا ليسلماه لعمر وجعله سلفا عليهما، واقترح عليهما أن يشتريا من بضائع العراق ويبيعوها بالمدينة، ويحوزان الربح ويسددان رأس المال لعمر؛ فربحا بهذه التجارة، وأرادا تسديد رأس المال، فأبى عمر إلا أن يسددا معه ما ربحاه. وبعد تدخل الصحابة جعله مضاربة، فاخذ نصف الربح مع رأس المال. وكان يحتج عليهما بقوله: "أَكلُّ الجيش أَسلفه مثل ما أسلفكما، أدِّيا المال وربحه"؛ وهكذا منع ﷺ استغلال نفوذه من قبل أولاده.

ب– حرصه وتفانيه في خدمة الرعيّة:

عن أنس ﷺ قال: كنت مع عمر فدخل حائطا لحاجته فسمعته يقول: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله بني الخطاب أو ليعذبنك؛ ولهذا حمل قربة على عاتقه فقيل له في ذلك، فقال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها؟ وكان يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته فلا يزال يصلي إلى الفجر. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء، وكان يسمع الآية من القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعا إلى منزله فيعاد أياما ليس به مرض إلا الخوف. قال أسلم مولى عمر: خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة، فلاح لنا بيت شعر فقصدناه، فإذا فيه امرأة تمخض (المخاض) وتبكي، فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة عربية وليس عندي شيء؛ فبكى عمر، وعاد يهرول إلى بيته، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم، فحمل على ظهره دقيقا وشحما، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة وجاءا، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها - وهو لا يعرفه - يتحدث، فوضعت المرأة غلاما، فقالت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين بشّر صاحبك بغلام؛ فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك، وأخذ يعتذر إلى عمر، فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف.

وقال أسلم أيضا: خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال: يا أسلم هاهنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون، فقال: ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع، فقال: وأي شيء على النّار؟ قالت: ماء أعلّلهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر؛ فبكى عمر ﷺ، ورجع مسرعا إلى دار الدقيق؛ فأخرج عدلا من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم احمله على ظهري، فقلت: أنا أحمله عنك، فقال أنت تحمل وزري يوم القيامة، فحمله على ظهره، وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار وقال: ايتيني بصحفة، فأتى بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان، وقال: كلوا، فأكلوا حتى شبعوا - والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه - فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم.

5- الانجازات الحضارية والإدارية في عهده ﷺ:

عندما يُذكر عمر بن الخطاب ﷺ، يتحدث الناس عن إسلامه الذي كان فتحاً، وعن عدله الذي بهر العقول، وعن تقواه وخشيته وتقشفه في ملبسه ومأكله، ويذكرون عمر الفاتح الذي فتحت في عهده بلاد الشام بأكملها والعراق وفارس وخراسان ومصر.. ويذكرون عمر المجتهد الفقيه، وقد وصفه الرسول ﷺ بالعبقرية فقال: «لم أرَ عبقرياً يفري فريه»، ووصفه بأنه مُحَّدث ملهم. كان عمر الخليفة ﷺ، يداوي إبل الصدقة بيده، ويمشي في السوق وحده، ومع ذلك يصل من هيبته أن القادة الكبار يفرقون منه. وسنتحدث في هذه النقطة، عن شخصية عمر المؤسس للدول، المخطط للعمران، وعن اهتماماته الحضارية، الاجتماعية والاقتصادية، من خلال الآتي:

أ- تنظيم القضاء:

لم يكن منصب القاضي متميزا في خلافة أبي بكر ﷺ، بل كان يقوم به فقهاء الصحابة، وكان الخليفة يقضى بنفسه بين الناس في المدينة، وأحيانا كان يقوم بذلك عمر بن الخطاب ﷺ بأمر الخليفة أبي بكر، وكان الولاة هم المسؤولين عن القضاء في الأمصار. ومنذ خلافة عمر عيّن بعض الصحابة على القضاء في المدينة، منهم: زيد بن ثابت وأبو الدرداء، كما عيّن عددا من القضاة في الأمصار منهم: عبد الله بن مسعود، وشريح بن الحارث الكندي، وعبيدة السلماني، كلهم على قضاء الكوفة. كما عيّن عمر عبادة بن الصامت على قضاء حمص وقنسرين. وبهذا الإجراء فصل عمر السلطة القضائية عن سلطة الولاة؛ وبذلك يتعزز موقع القاضي حيث أنه يرتبط بالخليفة مباشرة.

ب- تأسيس بيت المال:

لم يكن للمسلمين بيت مال في عصر الرسالة، وكان الرسول ﷺ إذا أتاه الفيء قسمه في يومه، فأعطى الآهل حظين، وأعطى العزب حظا. وكان أبو بكر ﷺ في أول خلافته ينهج منهج الرسول ﷺ في قسمة المال دون حفظه. وفي خلافة عمر ﷺ تدفقت الأموال على الدولة، كما زادت نفقات الدولة زيادة عظيمة؛ فاحتاجت إلى تنظيم الواردات والمصروفات، والاحتفاظ بفائض المال لمدة طويلة، فاتخذ عمر ﷺ بيت المال، وممن تولى إدارته: عبد الرحمن بن عبد القاري، وعبد الله بن الأرقم الزهري، ومعيقيب بن أبي فاطمة. وقد استحدثت بيوت الأموال في الأمصار أيضا، توضع فيها أموال المصر الخاصة، فكان ممن تولى بيت المال في الكوفة عبد الله بن مسعود ﷺ.

ت- النفقات المالية للدولة (العطاء):

لما دفقت الأموال على خزانة بيت المال، أراد عمر ﷺ توزيع هذه الأموال؛ فأشار عليه الصحابة رضوان الله عليهم، لا تفعل يا أمير المؤمنين، إن الناس يدخلون في الإسلام ويكثر المال، ولكن أعطهم على كتاب؛ لهذا أسس ديوان العطاء، هو بمثابة إحصاء لأعداد المقاتلين المسلمين، بل ولغيرهم أيضا ممن استحقوا العطاء. وأما عن ترتيب الديوان، فقد بدأ بقرابة الرسول ﷺ الحسن والحسين، ثم الأقرب فالأقرب، فقسم لزوجاته ﷺ، ثم قدم المهاجرين الأولين فبدأ بأهل بدر منهم ثم أحد.. ومن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء، ثم أشرفهم ففرض لأهل بدر وأحد. وفرض لكل مولود 100 درهم، وكان يفرض للفطيم ثم فرض للمولود حين ولادته خوفا من تعجيل فطامه. وأما الموالي، فقد فرض لأشرافهم كالهرمزان حينما أسلم ألفي درهم.

ث- تمصير الأمصار:

لا شك أن خطوط المواصلات بين المدينة المنورة عاصمة الخلافة الراشدة وميادين القتال في العراق وإيران والشام ومصر وأفريقية أصبحت طويلة، فكان لابد من اتخاذ قواعد عسكرية داخل المناطق المفتوحة، تصلح لسكن المقاتلين، وتوفر لهم الخدمات الضرورية، وقد تم اختيار مواقع المدن الجديدة بعد مشاورات بين الخليفة عمر ﷺ، وقادة الميادين. وقد نبَّه عمر قادته إلى ضرورة قرب المدن من الماء والمرعى، وأن يجتمع فيها المسلمون، وبنى القادة مدنهم، فابتنى عتبة بن غزوان 14هـ البصرة. وأما بناء الكوفة فكان سنة 17هـ، إذ كان المسلمون يقيمون بالمدائن وقد اختطوا فيها وأقاموا المساجد لكنهم استوخموها؛ فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر ﷺ، فأمره ببناء مدينة لهم. وأما الفسطاط فقد اختطها عمرو بن العاص، فابتنى مسجدها الجامع وحوله دار الإمارة وخطط القبائل. وقد لوحظ في اختيار الموقع أن المدن الثلاثة لا تفصلها عن الصحراء عوائق طبيعية من أنهار وجبال؛ ليسهل انسحاب المقاتلين منها إلى الصحراء عند الضرورة.

د- وضع التقويم الهجري:

عندما قدم إلى عمر ﷺ صك مكتوب عليه كلمة "شعبان" قال عمر: كيف نعلم أن المقصود شهر شعبان الماضي أم الحالي؟ فعقد مجلسًا للشورى حضره كبار الصحابة وعرض هذه المسألة، أي تحديد التاريخ حتى لا تقع الأخطاء في العقود والمعاملات، فقال البعض: أرخوا من مولد الرسول ﷺ، وقال آخرون من مبعثه، وأشار علي ﷺ إلى أن يؤرخ من الهجرة؛ فاستحسن عمر

ﷺ هذا الرأي واستقر الأمر على أن تكون بداية التأريخ من بداية هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وأرّخوا من مُحرمها.

6- التدابير العمرية لمواجهة أزمة عام الرمادة الاقتصادية سنة 18هـ:

في سنة ثماني عشرة للهجرة، أصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط، وهو عام الرمادة، وكانت الريح تسفي ترابا كالرماد فسُمي عام الرمادة، واشتد الجوع حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قيحها. وأقسم عمر أن لا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيا الناس؛ فاسودّ لون عمر ﷺ وتغير جسمه حتى كاد يخشى عليه من الضعف. واستمر هذا الحال في الناس تسعة أشهر. ومن الاجراءات التي اتخذها لمواجهة الأزمة؛ فتح ﷺ دار الدقيق؛ وأخذ يُوزع على الناس ما فيها من دقيق وتمر وزبيب، وكتب إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام، فولّاه قسمتها فيمن حول المدينة، فقسمها وانصرف إلى عمله. وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم، وأرسل فيه الطعام إلى المدينة.

وكتب عمر ﷺ إلى ولاة الأقاليم أن يخرجوا يوم كذا، وساعة كذا، وان يتضرعوا إلى الله سبحانه وتعالى ويطلبون منه أن يرفع الجفاف ويرسل الأمطار، وأن يزيل هذه المجاعة التي أصابت الناس. وخرج في هذا اليوم ومعه العباس عم رسول الله ﷺ ماشيا، فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبتيه وقال: اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا وأحي العباد والبلاد! وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب وإن دموع العباس لتتحادر على لحيته وهو يقول: اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالة ... اللّهم فأغنهم بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس إلا القوم الكافرون؛ فنشأت طريرة من سحاب، ثم التأمت ومشت فيها ريح ثم هدأت ودرّت، ولم يبرحوا حتى سقوا، فأطبقت السماء عليهم أياما، فلما مطروا وأحيوا، أخرج عمر ﷺ العرب من المدينة، وقال: الحقوا ببلادكم.

6- تنظيم مسألة انتقال الخلافة، ووفاته ﷺ:

في آخر سنة ثلاث وعشرون لما نفر عمر من منى أناخ بالأبطح، ثم استلقى ورفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط"؛ فقبل الله دعاءه، وضربه أبو لؤلؤة المجوسي في صلاة الصبح في كتفه وفي خاصرته، فسقط

عمر، وطعن ثلاثة عشر رجلا معه فمات منهم ستة، فصلى عبد الرحمن بن عوف بالناس بأقصر سورتين، وكان ذلك يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة من سنة ثلاث وعشرين، واستأذن عمر من عائشة أن يدفن مع صاحبيه، فقالت كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي؛ فأتى عبد الله فقال: قد أذنت، فحمد الله تعالى.

وقيل له: أوصِ يا أمير المؤمنين واستخلف، قال: ما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي النبيّ ﷺ وهو راضٍ عنهم، وقد جعلتها بينهم، وسَمّى الستة وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وقال: يشهد عبد الله بن عمر معهم وليس له من الأمر شيء. ومات ﷺ بعد ثلاثة أيام، ودفن بالحجرة النبوية يوم الأحد مستهل المحرم من سنة أربع وعشرين ﷺ وأرضاه، وله ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك، وصلى عليه صهيب في المسجد.

خلافة عثمان بن عفان الحيّي السخيّ ﷺ
24- 35هـ/644- 656م

1- اسمه ونسبه وصفته:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. أبو عمرو وأبو عبد الله، القرشي، الأموي، أمير المؤمنين، ذو النورين. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وأمها أم حكيم وهي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ. ولد في السنة السادسة من الفيل بالطائف، وأسلم قديمًا، وهو ممن دعاه الصدّيق إلى الإسلام، وهو وصاحب الهجرتين، وزوج الابنتين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثلاثة الذين خلصت لهم الخلافة من الستة، ثم تعينت فيه بإجماع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، فكان ثالث الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، المأمور باتباعهم والاقتداء بهم.

وأما عن صفته الخَلقية؛ فقد كان عثمان ﷺ، رجلًا ربعة: ليس بالقصير، ولا بالطويل، حسن الوجه دقيق البشرة، أبيض مشربًا حمرة، بوجهه نكتات جدري، كثير اللحية، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، خدل الساقين، أروح الرجلين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه، جعد الرأس أصلع، أحسن الناس ثغرًا، جمته أسفل من أذنيه، يخضب بالصفرة، وكان قد شد أسنانه بالذهب.

وعُرف بالحياء الشديد، ورجاحة العقل، والعفة، وصلة الرحم، والتقوى، وإطالة التهجد في صلاة الليل، والبكاء عند ذكر الآخرة.

تزوج ﷺ رقية بنت الرسول ﷺ قبل النبوة، وهاجر إلى الحبشة أول الناس ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة، فلما كانت وقعة بدر اشتغل بتمريض ابنة رسول الله ﷺ، وأقام بسببها في المدينة، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منها وأجره فيها، فهو معدود فيمن شهدها. فلما توفيت زَوَّجة رسول الله ﷺ بأختها أم كلثوم، فتوفيت أيضا في صحبته، وقال رسول الله ﷺ: «لو كان عندنا أخرى لزوجناها بعثمان»، ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره؛ ولذلك سُمي ذو النورين. وشهد ﷺ أحدا وفرّ يومئذ فيمن تولى، وقد نص الله على العفو عنهم، وشهد الخندق والحديبية، وشهد خيبر وعمرة القضاء، وحضر الفتح وهوازن والطائف وغزوة تبوك، وجهّز جيش العُسرة يومئذ بثلاثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها. وحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وتوفي وهو عنه راض، وصَحب أبا بكر فأحسن صحبته، وتوفي وهو عنه راض، وصحب عمر فأحسن صحبته وتوفي وهو عنه راض.

2- فضائله ﷺ:

عُرف عثمان ﷺ بالتواضع، والكرم والسخاء، فقد عمل تاجرا فأصاب ثروة كبيرة قبل الإسلام، وقد أنفق منها الكثير على المصالح الإسلامية في مرحلة الدعوة والدولة. فقد اشترى بماله بئر رومة، ولم يكن بالمدينة ماء يستعذب غيرها، فجعلها سبيلا للمسلمين؛ استجابة لندب النبيّ ﷺ الصحابة لشرائها ووعدهم بخير منها في الجنة. واشترى أرضا لزيادة مساحة المسجد النبوي بالمدينة استجابة لندب النبيّ ﷺ للصحابة. وقد دعا النبيّ ﷺ إلى تجهيز جيش العسرة المتجه إلى تبوك وعدده ثلاثون ألف رجل، فبادر عثمان ﷺ إلى تجهيزه بالنفقة العظيمة. وقد دفع في تجهيز الجيش ألف دينار، وجاء فنثرها في حجر المصطفى ﷺ؛ فجعل النبيّ ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين. وأخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: اشترى عثمان الجنّة من النبيّ ﷺ مرتين: حيث حفر بئر رومة، وحيث جهّز جيش العسرة.

وقد ورد في فضله أحاديث كثيرة، نذكر منها: أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: أن النبيّ ﷺ جمع ثيابه حين دخل عثمان، وقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة». وعن أنس قال: لما أمرنا الرسول ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ إلى أهل

مكة، فبايع الناس، فقال النبيّ ﷺ: «إن عثمان بن عفان في حاجة الله وحاجة رسوله»، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد الرسول ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم.

وعن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ كان جالسا كاشفا عن فخذه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حاله، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له وهو على حاله، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه، فلما قاموا قلت: يا رسول الله، استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك، فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك: فقال: «يا عائشة ألا نستحي من رجل، والله إن الملائكة لتستحيي منه». وأخرج البخاري عن أنس قال: صعد النبيّ ﷺ أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه النبيّ ﷺ برجله وقال: «اثبت عليك نبيّ وصدّيق وشهيدان». وعن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع رسول الله ﷺ في حائط، فأمرني بحفظ الباب، فجاء رجل يستأذن فقلت: من هذا؟ قال: أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له وبشّره بالجنّة». ثم جاء عمر فقال: «ائذن له وبشّره بالجنّة»، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشّره بالجنّة على بلوى تصيبه»؛ فدخل وهو يقول: "اللهم صبرا، وفي رواية الله المستعان".

3- توليه الخلافة:

كان عمر ﷺ قد جعل الأمر بعده شورى بين ستة نفر وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم. وتحرج أن يجعلها لواحد من هؤلاء على التعيين، وقال لا أتحمل أمرهم حيا وميتا، وإن يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خير هؤلاء، كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم ﷺ، ومن تمام ورعة لم يذكر في الشورى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل؛ لأنه ابن عمه خشي أن يراعى فيولى لكونه ابن عمه، فلذلك تركه. وقال لأهل الشورى يحضركم عبد الله (ابنه) وليس إليه من الأمر شيء؛ يحضر الشورى ويشير بالنصح ولا يولى شيئا، وأن يجتمع أهل الشورى ويوكل بهم أناس حتى ينبرم الأمر، ووكل بهم خمسين رجلا من المسلمين. وجعل عليهم مستحثا أبا طلحة الأنصاري، والمقداد بن الأسود الكندي.

وبعدما انحصر الأمر في عثمان وعلي رضي الله عنهما؛ جعل أهل الشورى الأمر إلى عبد الرحمن ليجتهد للمسلمين في أفضلهما ليوليه، فنهض عبد الرحمن بن عوف ﷺ يستشير الناس فيهما، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعا وأشتاتا، مثنى وفرادى، ومجتمعين،

سرا وجهرا، حتى خلص إلى النساء المخَدَرات في حجابهن، وحتى سأل الوِلدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد أنهما أشارا بعلي بن أبي طالب، فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاث أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاء واستخارة، وسؤالا من ذوي الرأي عنهم، فلم يجد أحدا يعدل بعثمان بن عفان ﷺ،

فلما كانت الليلة يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة، وقال له: اذهب فادع إلي عليا وعثمان، ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه رسول الله ﷺ، وتقلد سيفا، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس عامة الصلاة جامعة؛ فامتلأ المسجد حتى غص بالناس، ثم صعد عبد الرحمن ابن عوف منبر رسول الله ﷺ، ودعا دعاء طويلا، ثم تكلم فقال: أيها الناس، إني سألتكم سرا وجهرا فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين إما علي وإما عثمان، فقم إليّ يا علي، فقام إليه تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال فأرسل يده وقال: قم إليّ يا عثمان، فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم! قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان؛ فازدحم الناس يبايعون عثمان ﷺ، وكان عمره حين بويع بالخلافة في محرم سنة 24هـ بحدود السبعين عاما.

4- أعمال الخليفة عثمان ﷺ:

أ- جمع الناس على مصحف واحد:

ومن مناقبه الكبار وحسناته العظيمة ﷺ، أنه جمع الناس على قراءة واحدة، وكتب المصحف على العرضة الأخيرة، التي درَّسها جبريلُ على رسولَ الله ﷺ في آخر سِني حياته؛ وكان سبب ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في بعض الغزوات، وقد اجتمع فيها خلق من أهل الشام، ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود، وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق، ممن يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود، وأبي موسى، وجعل من لا يعلم بسَوغان القراءة على سبعة أحرف، يفضل قراءته على

قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كفره؛ فأدى ذلك إلى اختلاف شديد، وانتشار في الكلام السيء بين الناس، فركب حذيفة إلى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم. وذكر له ما شاهد من اختلاف الناس في القراءة؛ فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به، دون ما سواه.

فاستدعى بالصّحف التي كان الصدّيق ﷺ أمر زيد بن ثابت بجمعها، فكانت عند الصدّيق أيام حياته، ثم كانت عند عمر ﷺ، فلما توفي صارت إلى حفصة أم المؤمنين، فاستدعى بها عثمان وأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموي، بحضرة عبد الله بن الزبير الأسدي وعبد الرحمن بن الحارث المخزومي، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، فكتب لأهل الشام مصحفا، ولأهل مصر آخر، وبعث إلى البصرة مصحفا وإلى الكوفة بآخر، وأرسل إلى مكة مصحفا وإلى اليمن مثله، وأقرّ بالمدينة مصحفا. ويقال لهذه المصاحف الأئمة، وليست كلها بخط عثمان، بل ولا واحد منها، وإنما هي بخط زيد بن ثابت، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه، وإمارته. ثم عمد إلى بقية المصاحف التي بأيدي النّاس مما يخالف ما كتبه فحرَّق؛ لئلا يقع بسببه اختلاف.

ب– إنشاء أول أسطول بحري إسلامي:

يرجع الفضل لذي النورين ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان ﷺ في إنشاء أول أسطول بحري إسلامي. فقد كان معاوية بن أبي سفيان ﷺ يلحّ على عمر بن الخطاب ﷺ أثناء خلافته أن يركب البحر ويفتح قبرص؛ فكتب الفاروق إلى عمرو بن العاص والي مصر: صف لي البحر وراكبه، فكتب عمرو إلى عمر: "إني رأيت خَلْقا كبيرا يركبه خلْقٌ صغير، إن رَكُن خَرَق القلوب، وإن تحرّك أراع العقول ... هم فيه كدود على عود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق"، فلما قرأه عمر، كتب إلى معاوية: والله لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا.

وفي عهد عثمان، كرّر معاوية الإلحاح في طلبه ركوب البحر حتى استُجيب لطلبه، إذ وجه الخليفة إليه الأمر ومعه عبدالله بن أبي السرح بالتعاون لتوفير كل الإمكانات اللازمة لبناء أسطول بحري إسلامي؛ لصدِّ هجمات الروم على سواحل مصر والشام لتأمين حدود الدولة الإسلامية براً وبحراً. وقد كانت نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر وبخاصة

الإسكندرية وعكا، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين.

وقد صدَّ هذا الأسطول هجمات الروم المتلاحقة؛ وتعد أهم تلك المعارك التي وقعت في عهد عثمان موقعة "ذات الصواري" عام 34هـ؛ حيث جمع الروم فيها جيشاً مكون من خمسمئة سفينة لمحاربة المسلمين، فأمر معاوية قائده عبدالله بن أبي السرح بالتوجه إليهم، فالتقاهم في عرض البحر بأسطول يتألف من مئتي سفينة، ودارت بينهم معركة عظيمة هُزم فيها الروم ودُمر أسطولهم وقُتل منهم الآلاف وأصيب قسطنطين بن هرقل وفر من مكان المعركة. وتأمنت حدود الدولة الإسلامية بهذا الانتصار وذهب خوف ركوب البحر لدى المسلمين، وتبلورت فكرة بناء أسطول كبير تكون له السيادة على البحر المتوسط، وتحولت الإسكندرية إلى دار عظيمة لصناعة السفن واستخدم فيها العمال المصريون ممن أتقنوا الصنعة على أيدي الروم، وأبلى المسلمون بلاء حسناً وأثبتوا أنهم في البحر، كما في البر، قوة وعزيمة وحب في نصر دين الله.

ب- توسيع المسجد الحرام والمسجد النبوي:

في سنة 26هـ، أمر عثمان ﷺ بتوسيع المسجد الحرام بمكة، وقد تطلب ذلك القيام باستملاك بعض الدور المجاورة له؛ وابتاع من قوم وأبى آخرون، فهدّم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصيحوا بعثمان، فأمر بهم بالحبس، وقال: أتدرون ما جرأكم عليّ! ما جرأكم عليّ إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به، ثم كلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، فأخرجوا. وقد أشير إلى أن عثمان ﷺ زاد في بناء المسجد الحرام، وأمر بتجديد أنصاب (حدوده وأعلامه) الحرم. ويبدو أن الدافع لذلك، هو ضيق المسجد الحرام بالناس الذين يقصدونه في موسم الحج وفي الأوقات الأخرى، نتيجة لتزايد أعداد المسلمين بصورة مطردة.

وأما عن المسجد النّبوي في طيبة (المدينة)، فالمعلوم أنّ النبيّ ﷺ هو من شيّده في السنة الأولى من هجرته ﷺ، وقد اتخذ سواريه من النخيل، وسقفه من الجريد، ولم يبالغ في ارتفاعه بل كان يزيد على المترين قليلا؛ ليتمكن رسول الله ﷺ من الوقوف على الجذع في وقت الخطبة. وقد كانت مساحته سبعين ذراعا في ستين. ثم زاد في توسعته ﷺ في العام السابع الهجري، وقد جعله في هذه المرة مربعا 100 ذراع في 100 ذراع. وفي عام 17 هجرية رأى عمر ﷺ أن الحاجة تقتضي توسعة مسجد رسول الله ﷺ، فجعل طوله 140 ذراعا وعرضه 120 ذراعا.

وفيما يخص توسعة الخليفة عثمان ﷺ للمسجد النّبوي، ففي عام 29هـ شيّد عثمان مسجد رسول الله ﷺ على نسق ما جدّ من عمارة في المدينة المنورة. وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الأول، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وجعل سقفه من خالص خشب الساج، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه مائة وخمسين ذراعا، وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ﷺ، ستة أبواب. وقبل بدء العمل استشار أصحاب رسول الله ﷺ في التوسعة؛ فحسّن الناس له ذلك ودعوا له. وفي صباح اليوم التالي دعا العمال وقد باشر ذلك بنفسه. وكان ابتداء العمل في ربيع الأول عام 29هـ ونهايته في أول محرم عام 30 هجرية، وقد استغرق العمل عشرة أشهر.

إن ما تقدم، يشير إلى وجود معالم نهضة عمرانية في عهد الخليفة عثمان ﷺ، تستهدف تغيير أسلوب البناء والمواد المستخدمة فيه بصورة تتناسب مع تطور المجتمع وتنامي قوة وثروة الدولة العربية الإسلامية، ولا بد أن تحقيق هذا الهدف تطلب الاستعانة بخبرات سكان الأقاليم المحررة في العراق والشام ومصر وغيرها، ويلاحظ أن التوسع في العمران لم يقتصر على بناء المسجد الحرام والمسجد النبوي، بل امتد إلى بناء كثير من المنازل والقصور في المدينة. كما أن مساحة المدينة قد اتسعت في هذا العهد حتى وصلت حدود جبل سلع، مما أثار استياء أبي ذر الغفاري؛ لأنه عدّ ذلك من مظاهر الترف والخروج على حالة البساطة التي كان عليها المجتمع في العهد النبوي.

5- الفتنة واستشهاد الخليفة عثمان ﷺ:

قسم المؤرخون خلافة عثمان ﷺ الممتدة على اثني عشر عاما، إلى مرحلتين زمنيتين، مدة كل منهما ستة أعوام، المرحلة الأولى هادئة ساكنة ومُرضية، والمرحلة الثانية مضطربة ومتوترة تتفاقم حتى تُفضي إلى مقتله. كان عثمان ﷺ شيخا مُسنا عندما تولى الخلافة، طيّب القلب حسن النيّة؛ ويبدو أن صفاته جعلته هدفا سهلا للطامعين.

وتعتبر فتنة مقتل الخليفة عثمان ﷺ من أخطر الأحداث التي مرت بها الدولة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة، وقد تركت من الاختلاف والانقسام في صفوف الأمة ما كاد يودي بها، وقد أعقبتها فتن داخلية أخرى تتصل بها وتتفرع عنها وهي موقعة الجمل وصفين والنهروان، كما استمرت آثارها متمثلة في أحزاب المعارضة للدولة الأموية وهما الخوارج والشيعة. بل يمكن أن نعتبر الانقسامات الكبرى الناجمة عن الفتنة مؤثرة في الأمة حتى الوقت الحاضر. ومثل هذه الفتنة لابد أن

تختلف فيها الآراء وتتلاعب في نقل أخبارها الأهواء، وقد شحنت مصادرنا التاريخية بألوف الروايات المتعارضة، وهي تمثل الاتجاهات المختلفة السائدة وقت الرواية ثم في عصر التدوين.

5-1- السبئية ودورها في التأليب على عثمان ﷺ:

ذكر سيف بن عمر أن سبب تألب الأحزاب على عثمان ﷺ، أن رجلا يقال له عبد الله بن سبأ كان يهوديا من صنعاء فأظهر الإسلام وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه من عند نفسه، وبثّ دعايته بأن النبيّ ﷺ قد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب، فمحمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ثم يقول: فهو أحق بالإمرة من عثمان، وعثمان معتد في ولايته ما ليس له؛ فأنكروا عليه (عثمان) وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فافتتن به بشر كثير من أهل مصر، وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة، فتمالأوا على ذلك، وتكاتبوا فيه، وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان، وأرسلوا إليه من يناظره ويذكر له ما ينقمون عليه من توليته أقرباءه وذوي رحمه وعزله كبار الصحابة.

وتذكر الروايات التاريخية أنه أثار أبا ذر ضد معاوية زاعماً أن معاوية يقول إن المال مال الله، وأقنعه أنه يريد بذلك احتجاز المال ومنعه عن الرعية؛ لذلك طلب أبو ذر من معاوية أن يقول إن المال مال المسلمين، فوافقه معاوية ترضية له، ولكن أبا ذر استمر يعلن آراءه في سياسة المال والإنفاق؛ فشكاه معاوية إلى عثمان فطلبه عثمان. وأنه أثار أيضا تذمر عمار بن ياسر في مصر ضد عثمان، وأنه كان ذا عقلية ذكية فاستطاع أن ينظم دعاية واسعة ضد الخليفة عثمان وعمال الأمصار.

5-2- أسباب الفتنة:

ويبدو أن المعارضة الناقمة على عثمان ﷺ، كانت تتذرع بأسباب دينية وسياسية واقتصادية، ومن بين تلك المآخذ التي ذكرها المؤرخون، وعدّوها أسبابا للاضطرابات، نذكر الآتي:

- سمح لجمهور الصحابة بالانسياح في الأمصار، مُنهيا التقليد الذي فرضه الفاروق ﷺ عليهم؛ مما أدى إلى ظهور طبقة مترفة أخذت تعمل على ضمان مصالحها.

- ردّ الحكم بن أبي العاص بن أمية إلى المدينة، بعدما كان النبيّ ﷺ قد نفاه إلى الطائف؛ نظرا لإيذائه له.

– أبعد أبا ذر الغفاري عن المدينة إلى الرّبذة، هذا الأخير الذي دعا إلى عدم اكتناز الأموال، وحاول عثمان وغيره من الصحابة إقناعه بأن دعوته لا تصل مجتمعا ولا يقوم عليه بنيان أمة، ونتيجة لهذا التباين، استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة، فأذن له ونزل الرّبذة.

– عزل عمال عمر ﷺ عن الولايات، وعيّن أقاربه الأحداث بدلا منهم، وقرّبهم وأعطاهم أكثر من النّاس، والواقع أن سياسة التغيير أثارت جدلا وردود فعل متباينة بين الصحابة وجمهور المسلمين.

– قضية تدوين المصحف، واعتماد النسخة المدونة وإحراق ما سواها من النسخ.

– وتعرّضت سياسة عثمان ﷺ بتوسيع الحمى للنقد، إذ أنه زاد في حِمى إبل الصدقة، وإنما حمله على ذلك زيادة أعدادها، لكنه أعطى إذنا لبعض عماله ولعدد من الصحابة بالإفادة من الحمى؛ مما عرّضه لانتقادات بعض الصحابة.

– ومن القضايا التي أثيرت ضد الخليفة أنه أتم الصلاة بمنى في عام 29هـ، خلافا لسنة النبيّ ﷺ وعمل أبي بكر وعمر، وكان عثمان يتأول ذلك ويرى أن له حكم المقيم.

وتُرجع الدراسات الحديثة الفتنة إلى عوامل اقتصادية واجتماعية، فيشيرون إلى تدفق الأموال في المجتمع الإسلامي نتيجة الفتوح، وظهور بوادر الترف في المجتمع، وحدوث تفاوت كبير في مستوى المعيشة نتيجة التباين في توزيع الثروة، وإلى توقف الفتوح في النصف الثاني من خلافة عثمان ﷺ؛ مما جعل النّاس في الأمصار يحسون بالفراغ وينغمسون في الفتن والشغب على الحكام.

5-3- حِصار عثمان ﷺ واستشهاده:

ففي سنة خمس وثلاثين كان مقتل عثمان ﷺ، والسبب في ذلك أن عمرو بن العاص حين عزله عثمان عن مصر ولّى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبعث عثمان إلى عمرو أن اقدم إليّ؛ فانتقل عمرو إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير، وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان. ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حربه والإنكار عليه، وكان عُظْم ذلك مسندا إلى محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، حتى استنفرا نحوا من ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب، لينكروا على عثمان، وأقبل معهم محمد بن أبي بكر، وأقام بمصر محمد بن أبي حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء. وكتب

عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة منكرين عليه في صفة معتمرين.

فلما اقتربوا من المدينة أمر عثمان على ابن أبي طالب أن يخرج إليهم ليردّهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة؛ فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره، فردّهم وأنّبهم وشتمهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به. ويُذكر أنه ناظرهم في عثمان، وسألهم ماذا ينقمون عليه، فذكروا أشياء منها أنه حمى الحمى، وأنه أحرق المصاحف، وأنه أتم الصلاة، وأنه ولّى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر، وأعطى بني أمية أكثر من النّاس، فأجاب علي بن أبي طالب ﷺ وقال: أما الحِمى فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه وقد حماه عمر من قبله. وأما المصاحف فإنما حرّق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة، وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها، وأما توليته الأحداث فلم يولّ إلا رجلا سويا عدلا، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد بن حارثة، وطعن الناس في إمارته فقال إنه لخليق بالإمارة. وأما إيثاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشا على النّاس.

أ- خبر الرّاكب الذي تعرض للوفد المصري:

كان الوفد المصري قد ناقش عثمان ﷺ في الأمور التي أخذوها عليه، ثم أخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطا، وأخذ عليهم ألا يشقُّوا عصا ولا يفارقوا جماعة، ثم رجعوا راضين. فبينما هم بالطريق إذا راكب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم. قالوا: مالك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر؛ ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامل مصر: أن يصلبهم، أو يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم. فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فاتوا عليا فقالوا: ألم تر إلى عدو الله، كتب فينا بكذا وكذا، وإن الله قد أحلّ دمه فقم معنا إليه. قال: والله لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتابا. فنظر بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة.

فانطلقوا إلى عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا، فقال: إنهما اثنتان، يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أمليتُ ولا علمتُ. وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل ويُنقش الخاتم على

الخاتم. قالوا: قد أحلّ الله دمك، ونقضت العهد والميثاق، وحصروه في القصر. وقد كان عثمان ﷺ يترقب وقوع الفتنة، حيث أخبره النبيّ ﷺ بفتنة تقع له وأنه يستشهد فيها، وكان يخرج على المعارضين يُحاججهم بالقرآن والسنة، ويذكرهم بمواقفه في خدمة الإسلام والمسلمين.

ب– يوم الدّار ومقتل عثمان ﷺ:

واستمر عثمان ﷺ يصلي بالناس في تلك الأيام كلّها، فلما كان في بعض الجمعات وقام على المنبر، وفي يده العصا التي كان يعتمد عليها رسول الله ﷺ في خطبته، وكذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من بعده، فقام إليه رجل من أولئك فسبّه ونال منه، وأنزله عن المنبر، فشج أمير المؤمنين عثمان، وهو في رأس المنبر، وسقط مغشيا عليه، واحتمل إلى داره وتفاقم الأمر، وطمع فيه أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس، وألجأوه إلى داره وضيّقوا عليه، وأحاطوا بها محاصرين له، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم، وسار إليه جماعة من أبناء الصحابة، عن أمر آبائهم، منهم الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير - وكان أمير الدار - وعبد الله بن عمرو، وصاروا، يحاجون عنه، ويناضلون دونه أن يصل إليه أحد منهم، وأسلمه بعض الناس رجاء أن يجيب أولئك إلى واحدة مما سألوا، فإنهم كانوا قد طلبوا منه إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، ولم يقع في خلد أحد أن القتل كان في نفس الخارجين.

وانقطع عثمان عن المسجد فكان لا يخرج إلا قليلا في أوائل الأمر، ثم انقطع بالكليّة في آخره، وقد استمر الحصر أكثر من شهر، وقيل أربعين يوما، من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة، فلما كان قبل ذلك بيوم، قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار وكانوا قريبا من سبعمائة، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم: أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله، لقد اختار حقن دمائهم وفداء أرواحهم بدمه وروحه. وتثبت الروايات الصحيحة أن الذي باشر قتل عثمان ﷺ رجل من بني سدوس، خنقه قبل أن يضرب بالسيف، قال كنانة مولى صفية: رأيتُ قاتل عثمان، رجلاً أسود من أهل مصر، وهو في الدار رافعا يديه يقول: أنا قاتل نعثل. وقد استشهد ﷺ ضحوة يوم الجمعة 18 ذي الحجة سنة 35هـ/17 جوان 656م، فكانت خلافته ثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوما. قتل عثمان ﷺ وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، ودفن ليلًا في حُشّ كوكب بالبقيع، وسرًا بعد ثلاثة أيام في أسوأ الظروف.

وهكذا وقع حادث كبير وخطير في تاريخ الإسلام، قاتم ومأساوي لفصل مثير في تاريخ الخلافة الراشدية، التي أضحت أمام منعطف خطير سيترتب عليه عواقب وخيمة على الأمة الإسلامية بعامة، من واقع الانشقاقات، والانقسامات النهائية؛ لأن الهدوء سوف لن يدوم طويلًا بعد عثمان، فانطلق داخل الأمة عنف واسع دمّر الطاقة الإسلامية الذاتية، وشل نهوض الأمة بما يتماثل والمراحل السابقة في عهدي الخليفتين أبي بكر وعمر، فانقسم المسلمون إلى جماعات، وأحزاب متناحرة تفجرت في الحرب الأهلية، إنها إحدى أخطر المراحل في التاريخ الإسلامي، وقد تفوقت بنتائجها السلبية على حركة الردة التي أمكن حصرها والقضاء عليها، وبرزت قوة الأمصار على حساب قوة المدينة بخاصة والحجاز بعامة، التي سوف تتراجع، وتتوارى في الظل.

خلافة علي بن أبي طالب ﷺ
35- 40هـ/656- 661م

1- اسمه ونسبه:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، ابن عم النبيّ ﷺ، يكنى بأبي تراب، وهو أبو الحسن الهاشمي، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، اعتنقت الإسلام، وهاجرت إلى المدينة. وُلد علي ﷺ في مكة قبل البعثة بعشر سنين، ونشأ في حجر النبيّ ﷺ، وذلك أن أبا طالب كان كثير العيال، فلما أصاب مكة جدب، طلب النبيّ ﷺ من عمّه العباس أن يخفف عن أبي طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده، فذهبا إليه وعرضا عليه المساعدة فقبل، فضم العباس إليه جعفرا وضم النبيّ ﷺ عليًا. ولما بُعث النبيّ ﷺ كان علي ﷺ أول من آمن به من الصبيان، وهو ابن عشر سنين.

صفاته الخَلقية؛ كان علي ﷺ شيخًا سمينًا، أصلع، كثير الشعر، ربعة إلى القصر، عظيم البطن، عظيم اللحية جدًّا، قد ملأت ما بين منكبيه بيضاء كأنها قطن، آدم شديد الأدمة.

وكان له من الولد الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى، وأمهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ. ومحمد بن علي الأكبر وهو ابن الحنفية وأمه خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة. وعبيد الله وأبو بكر وأمهما ليلى بنت مسعود بن خالد بن تميم. والعباس الأكبر وعثمان وجعفر الأكبر وعبد الله قتلوا مع الحسين بن علي ولا بقية لهم، وأمهم أم البنين بنت حزام بن خالد بن كلاب. ومحمد الأصغر بن علي قتل مع الحسين، وأمه أم ولد. ويحيى وعون وأمهما أسماء بنت

عميس الخثعمية. وعمر الأكبر ورقية وأمهما الصهباء، وهي أم حبيب بنت ربيعة، وكانت سبية أصابها خالد بن الوليد حين أغار على بني تغلب بناحية عين التمر. ومحمد الأوسط وأمه أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ. وأم الحسن ورملة الكبرى، أمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي. وأم هانئ وميمونه وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة: بنات علي وهن لأمهات أولاد شتى. وابنة لعلي لم تُسم لنا هلكت وهي جارية لم تبرز، وأمها محياة بنت امرئ القيس الكلبية. فجميع ولد علي بن أبي طالب لصلبه أربعة عشر ذكرا، وتسع عشرة امرأة.

2- فضائله ومناقبه ﷺ،

قال الإمام أحمد بن حنبل: ما ورد لأحد من أصحاب الرسول ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي ﷺ. فعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الرّاية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات النّاس يدكون (أي؛ يخوضون ويتحدثون) ليلتهم أيّهم يعطاها؟ فلما أصبح النّاس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له؛ فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. قال علي ﷺ: ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله ﷺ وجهي، وتفل في عيني، يوم خيبر حين أعطاني الراية.

وأخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم**﴾ [آل عمران، 61] دعا رسول الله ﷺ عليًّا، وفاطمة، وحسنًا، حسينًا فقال: «اللّهم هؤلاء أهلي». وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة». وعن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم، ولا أدري ما القضاء، فضرب صدري بيده ثم قال: «اللّهم اهد قلبه، وثبت لسانه»، فوالذي فلق الحبّة ما شككت في القضاء بين اثنين. وعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ قال: «من أحب عليًّا فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحبّ الله، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله». وعن أبي سعيد الخدري قال: اشتكى النّاس عليًّا، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا فقال: «لا تشكوا عليًّا، فوالله إنه لَأُخَيْشن في ذات الله، أو سبيل الله».

وأقوال الصحابة والتابعين في مناقب علي ﷺ وعلمه، أكثر مما تُحصى، فقد قال في علمه سعيد بن المسيب: لم يكن أحد من الصحابة يقول: "سلوني»" إلا علي. وقال ابن مسعود: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي. وقال عمر ﷺ: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن. وقال ابن عباس: إذا حدثنا ثقة بفتيا عن علي لم نتجاوزها. وقالت عائشة في علم علي بالسنة: "أما إنه أعلم من بقي بالسنة". وقال مسروق: انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى عمر، وعلي، وعبد الله.

3- حياته قبل تولي الخلافة ﷺ:

عُرف علي ﷺ بالشجاعة والبطولة، وليس أدلّ على ذلك من تعرضه للخطر في الليلة التي هاجر فيها النبيّ ﷺ، إذ لبس ثوبه وبات في فراشه، مع أنه كان يعلم عزم المشركين على قتله في تلك الليلة، ثم لحق به إلى المدينة بعد أن أدى الودائع التي كانت عند النبيّ ﷺ لأصحابها. وشارك في جميع الغزوات مع النبيّ ﷺ سوى تبوك، وحمل الراية يوم بدر وهو ابن عشرين سنة، وأظهر شجاعة فائقة في أحد، وتصدى لعمرو بن عبد ود العامري وهو يحاول اقتحام الخندق في غزوة الأحزاب فقتله، وكان من فرسان العرب المشهورين، وحمل الراية في فتح خيبر سنة 7هـ ففتح الله على يديه وثبت حنين مع من ثبت من المهاجرين والأنصار عندما فر الناس، واستخلفه النبيّ ﷺ على المدينة في غزوة تبوك، وكان يرغب علي في الخروج معه للجهاد فقال له: «ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيّ بعدي». وأرسله إلى اليمن مرتين؛ مرة داعيا وغازيا سنة 9هـ، ومرة قاضياً.

ولما انتقل النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، غاب علي ﷺ عن اجتماع السقيفة، وقد أجمع المسلمون على بيعة أبي بكر ﷺ، وقد بايع علي بن أبي طالب مع الناس في رواية، وتأخرت بيعته ستة أشهر احتجاجاً على عدم مشاورته في أمر الخلافة في رواية أخرى. وفي خلافة عمر ﷺ صار علي ﷺ أحد رجال الشورى المقربين لديه، فكان يشد من أزره ولا يبخل عليه برأيه، ويجتهد معه في إيجاد حلول للقضايا التي لم يرد فيها نص، وفي تنظيم أمور الدولة الفتية، ومن أهم مشوراته موافقته لرأي عمر في عدم توزيع الأرض المفتوحة، واقتراحه البدء بكتابة التاريخ الإسلامي ابتداء من الهجرة النبوية إلى المدينة.

ولما استشهد عمر ﷺ جعل عليا أحد الستة الذين يتألف منهم مجلس الشورى لاختيار أحدهم خليفة، وقد تمت البيعة لعثمان بن عفان ﷺ، وبايعه علي، فكان ثاني من بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف. وكان قريبا من الخليفة عثمان يستشار في الأمور المهمة، ومن مشوراته موافقته لعثمان في جمع الناس على قراءة واحدة لمنع اختلاف الناس في القرآن. وكان علي ﷺ حريصا على إسداء النصيحة لعثمان، والإصلاح بين الناس عندما هاجت الفتنة، وحاول الدفع عن عمان، وأرسل الحسن والحسين للمشاركة في حراسة داره، وأرسل إليه قِرب الماء حين منع الثوار الماء عن داره.

4- علي بن أبي طالب ﷺ خليفة للمسلمين:

تولى علي الخلافة إثر مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنهما في ظروف خطيرة حيث سيطر الناقمون على عثمان على المدينة، وأفلت الأمر من يد كبار الصحابة، ولم تعد ثمة سلطة عليا تحكم الدولة الإسلامية، وقد سعى الناقمون إلى تولية عبد الله بن عمر، وهدّدوه بالقتل إن لم يرض، ولكن لم يجدوا منه إلا صدودا؛ فأدركوا أن أمر الخلافة بيد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار من أهل بدر، وأن النّاس تبع لهم في ذلك.

وقد بادر النّاس إلى علي ﷺ ليبايعوه، فاظهر رغبته عن الخلافة في تلك الظروف، وقال: "والله إني لأستحي أن أبايع قوما قتلوا رجلا قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»، وإني لأستحي من الله أن أُبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يُدفن بعد"؛ فانصرفوا. فلما دُفن عثمان ﷺ أتوه مرة أخرى وسألوه البيعة وقالوا: لابد للنّاس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحق بها منك، فقال لهم علي ﷺ: فإني لكم وزير خير مني لكم أمير، فقالوا: لا والله ما نعلم أحداً أحق بها منك.

وهنا تفتق ذهن علي ﷺ عن وسيلة تجعله يتلقى البيعة علنا من المسلمين عامّة دون أن يبايعه الناقمون بيعة خاصة، وقال لهم: "فإذا أبيتم عليَّ، فإن بيعتي لا تكون سرا، ولكن أخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني بَايعني"؛ فخرج إلى المسجد وبايعه النّاس عن رضاً واختيار، سوى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فإنهما بايعاه مُكرهين ولم يكونا راضيين عن الطريقة التي تمت بها البيعة، حيث لم يتم التداول بين أهل الحل والعقد بشأنها، ولم يعقد مجلس للشورى.

واعتزل بعض الصحابة فلم يبايعوا عليًّا ﷺ ومنهم: محمد بن مسلمة وأهبان بن صيفي وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، فقد كانوا يرون النّاس في فرقة واختلاف وفتنة، فكانوا ينتظرون أن يستقر الأمر فيبايعوا. كما أن معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام وكثير من أهل البصرة ومصر واليمن لم يبايعوه بسبب. ويرى ابن حزم أن عدد من امتنع عن بيعته مثل عدد من بايعه، ولكن معظم أهل الحل والعقد من أهل بدر والمهاجرين والأنصار بالمدينة بايعوا لعلي ﷺ؛ وبذلك انعقدت له البيعة وصار خليفة للمسلمين، وهو آخر خلفاء النبوّة التي ورد بها حديث «خلافة النبوّة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء».

وكانت بيعة علي ﷺ بعد سبعة أيام من مقتل عثمان، وقد ثبّت أبا موسى الأشعري على ولاية الكوفة فأخذ له البيعة من معظم أهلها، وعزل علي والي مكة خالد بن العاص المخزومي وعيّن بدله أبا قتادة الأنصاري مدة شهرين، ثم عزله وعيّن قثم بن العباس. ويبدو أن الرأي العام بمكة كان غاضبا لعثمان وتصاعد الغضب لكثرة النازحين من المدينة إلى مكة؛ على أثر سيطرة الثوار على المدينة. وأرسل عثمان بن حنيف الأنصاري إلى البصرة والياً عليها بدلاً من عبد الله بن عامر بن كريز واليها لعثمان، وكان قد ترك البصرة متجها إلى مكة. وقد انقسمت البصرة على الوالي الجديد، فمنهم من بايع، ومنهم من اعتزل، ومنهم من رفض البيعة حتى يُقتل قتلة عثمان، وهؤلاء الأخيرون التفوا حول طلحة والزبير وعائشة حين قدم الثلاثة إلى البصرة.

وأما الشام فلم يُبايع واليها معاوية بن أبي سفيان مطالبا بالقصاص من القتلة. وأما مصر فكان واليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد تركها متجها إلى عسقلان؛ فاستولى عليها محمد بن أبي حذيفة مدة عام كامل، وواجه معارضة عثمانية تطالب بالقصاص من قتلة عثمان، فلما قتل بعد العام ولّى علي ﷺ عليها قيس بن سعد بن عادة الأنصاري حيث تمكن من أخذ البيعة لعلي وهادن العثمانية. وأرسل علي ﷺ عبيد الله بن العباس واليا على اليمن فاخذ له البيعة من أكثر أهلها، وبقيت جماعات تطالب بالقصاص من قتلة عثمان.

وكانت أخطر قضية تواجه الخليفة الجديد، هي مقاضاة قتلة عثمان وإنفاذ القصاص فيهم، وكان ابن عباس قد نبّه عليّا إلى خطورة الموقف قبل توليه الخلافة فقال: "إن الناس سيلزموك دم عثمان". وكان طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم قادة المطالبين بإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، مشترطين ذلك للدخول في طاعة علي الخليفة الجديد. فكان علي ﷺ بين تيارين قويين،

فالمشاركون والمحرضون على قتل عثمان منهم حكيم بن جبلة العبدي زعيم الثوار البصريين، ومنهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر من زعماء الثوار المصريين، ومنهم مالك الأشتر النخعي من زعماء الثوار الكوفيين، ومنهم محمد بن أبي حذيفة الذي غلب على مصر، ومحمد بن أبي بكر، وكلّهم لهم اختلاط بجيشه وتأثير على قبائلهم، وبعضهم ترك المدينة إلى الأمصار عقب بيعة علي، فلم يكن قادرا على إنفاذ القصاص مع اختلاف الناس عليه. وكان التيار الآخر ممثلا بطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين، وكانوا يضغطون بقوة لإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، ويرون أن عليّا ﷺ قد تخلى عن القصاص، ولم يعذروه في سياسته التي تميل إلى إماتة الفتنة وتخطّيها؛ بعدم إيقاع القصاص حتى يستتب له الأمر ويدخل في بيعته النّاس جميعا.

5- أزمة الخلافة، وموقعة الجمل سنة 36هـ:

ولما مضت أربعة أشهر على بيعة علي ﷺ دون أن ينفذ القصاص؛ خرج طلحة والزبير إلى مكة، والتقوا عائشة رضي الله عنها التي كانت عائدة من أداء فريضة الحج، واتفق رأيهم على الخروج إلى البصرة ليلتقوا بمن فيها من الخيل والرجال، ليس لهم غرض في القتال، وذلك تمهيدًا للقبض على قتلة عثمان، وإنفاذ القصاص فيهم. وصل أصحاب الجمل إلى البصرة، وقد غلبوا على البصرة دون أن يتمكن عثمان بن حنيف واليها لعلي من مقاومتهم؛ لأن قبائل البصرة انضم معظمها إليهم. واتجه المعارضون إلى بيت المال ودار الرزق، فاعترضهم حكيم بن جبلة العبدي أحد الثوار المشاركين في حصار الدّار بالمدينة، ومعه سبعمائة من قومه وجرت معركة قُتل فيها حكيم بن جبلة وسبعون من قومه كانوا قد شاركوا في حصار دار عثمان ﷺ بالمدينة.

أدرك علي ﷺ خطورة الموقف، وما يمكن أن يجر إليه الخلاف من تمزيق الدولة الإسلامية، فعزم على إعادة المعارضين إلى الطاعة؛ فخرج من المدينة في الأيام الأخيرة من شهر ربيع الثاني 36هـ، على رأس قوة عسكرية، كان من بين عديدها قاتلو عثمان ﷺ، وقد ربطوا مصيرهم بمصيره، وعلى رأسهم الأشتر النخعي، وزيد بن صوحان، وعدي بن حاتم، ويزيد بن قيس وغيرهم، وشكّل الكوفيون والبصريون معظم أفراد جيشه، وقد بلغ عدد قواته ما بين اثني عشر وعشرين مقاتل. ووصل ﷺ إلى البصرة غداة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، واستنفر في منطقة الزاوية بالقرب منها. ومن جهة أخرى، تحركت قوات الحلفاء أصحاب الجمل التي بلغ عديدها ثلاثين ألف مقاتل من منطقة الزابوقة، ثم عسكر الجيشان في منطقة الخريبة.

وجرت مفاوضات بين الطرفين، أسفرت عن اتفاقهما على الاقتصاص من قتلة عثمان بعد أن يستتب الهدوء، لكن قيادات القوى التي شاركت في قتل عثمان والموجودة في جيش علي، أبدت تخوفها من إحلال الصلح بين الطرفين، فأشار الأشتر إلى قتل علي، في حين أشار غيره إلى التخلي عنه، واقترحت فئة ثالثة دفع الطرفين للاشتباك، وذلك بالاندساس بينهم وإثارة الفتنة. وهكذا اشتعلت الحرب، وتركز القتال حول الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة رضي الله عنها وهي في هودجها، وقد شكّلت محور المعركة ورهانها، في حين مثّل الجمل استمرارية المعركة دفاعا عنه أو وصولا إليه، ومن أجل ذلك عُرفت المعركة بمعركة الجمل. وانتهى القتال بانتصار علي ومقتل طلحة والزبير، وأعاد علي عائشة إلى المدينة معزّزة مكرمة. واتخذ علي الكوفة عاصمة له بدلا من المدينة؛ وفاء لوعد أهلها الذين ساندوه في القتال.

6- معركة صفّين وقضية التحكيم:

لم يمكث علي بعد موقعة الجمل بالبصرة طويلاً، فما إن أعطى أهلها بيعتهم واستقام له الأمر فيها، حتى اتجه بجيشه نحو الكوفة، حيث يلقى تأييداً قوياً من أهلها في مواجهة معاوية بن أبي سفيان ﷺ بالشام، الذي أصرّ على معاقبة قتلة عثمان قبل إعطاء البيعة لعلي، وقد رأى معاوية ﷺ أنه ولي دم عثمان، لأنه صار رأس بني أمية مكانةً. وجهز علي ﷺ جيشاً كبيرا قدرته الروايات ما بين خمسين ألفا ومائة وخمسين ألفا، في حين قدرت جيش معاوية بستين ألفا ومائة وعشرين ألفا. وقد تجمع جيش علي ﷺ بالنخيلة غرب الكوفة، وقد ضم عدداً من الصحابة البدريين وأصحاب بيعة الرضوان، ومنها نزل على صفّين.

وكان الجيش الشامي قد عسكر في صفّين واستولى على المياه، ومنع جيش العراق منها، فقام الأشعث بن قيس بأمر علي ﷺ بتخليص المياه من أيدي الشاميين، وكان ذلك في بداية شهر ذي الحجة سنة 36هـ، ثم استمر القتال بشكل كتائب محدودة العدد طيلة الشهر والأسبوع الأول من محرم 37هـ دون أن يلتحم الجيشان، وكان الأمل في الصلح يحدو الجميع، ويرى الإخباريون أن عدد الوقعات بين الطرفين تزيد على السبعين. ثم في يوم الأربعاء التالي بدأ الالتحام بين الجيشين، وكان قادة جيش علي ﷺ هم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، ومحمد بن الحنفية، وهاشم بن عتبة، والمرقال، والأشعث بن قيس. وأما قادة جيش معاوية ﷺ فهم: معاوية بن

أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وذو الكلاع الحميري، وحبيب بن مسلمة الفهري، والمخارق بن الصباح الكلاعي، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

وقد طحنت المعركة ألوفا من الجانبين (حوالي 70 ألفا)، وكلَّ الباقون من القتال، وهنا تفتق ذهن عمرو بن العاص عن فكرة التحكيم، التي أنقذت الجيش الشامي من الهزيمة، فأرسل معاوية رجلاً يحمل المصحف إلى علي ويقول له: "بيننا وبينكم كتاب الله"، فقال علي: "إنا أولى بذلك بيننا كتاب الله". ويبدو أن معظم الجند العراقي جنحوا إلى التحكيم، لكن كثيرا من القراء أنكروا عليه قبوله بالتحكيم وقالوا: لا حكم إلا لله. فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل. وقد انشق المحتجون من القراء واعتزلوا جيش علي محتجين بأنه محا اسمه من إمرة المؤمنين. وقد مثّل أبو موسى الأشعري علياً، ومثل عمرو بن العاص معاوية في اجتماع الحكمين بدومة الجندل، وحضر الاجتماع جمع من الصحابة فيهم عبد الله بن عمر.

وقد اجتمع الحكمان في دومة الجندل ولم يتوصلا إلى اتفاق، وكان معاوية حاضرا اجتماع الدومة، ولم يحضر علي، ولعل لتحركات الخوارج أثرا في ذلك، فخطب معاوية في الناس قائلا: "من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به ومن أبيه". قال ابن عمر: فحللتُ حبوتي وهممت أن أقول: "أحقّ بهذا الأمر من قاتَلَك وأباك على الإسلام؛ فخشيتُ أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدماء، ويُحمل عنّي غير ذلك، فذكرتُ ما أعدّ الله في الجنان". فبقيت الأوضاع على حالها، علي ﷺ خليفة المسلمين، ومعاوية ﷺ أمير الشام ولم يبايع معاوية بالخلافة، إلا بعد استشهاد علي على يد الخوارج وكانت بيعته في بيت المقدس في شهر رمضان سنة 40هـ، بعد وصول خبر استشهاد علي ﷺ.

7- موقعة النهروان:

كان عدد القراء الذين اعترضوا على التحكيم في صفّين أربعة ألاف، وقد قالوا: "أَتحكمون في أمر الله الرجال، لا حكم إلا لله"، هذه المقولة صارت شعار الحركة الخارجية؛ ولذلك سموا بالمحكِّمة، كما سمّوا بالخوارج؛ لخروجهم على الخليفة الشرعي علي ﷺ، كما سموا بالحَرورية نسبة إلى قرية حروراء قرب الكوفة حيث انشقوا عن جيش علي ﷺ العائد إلى الكوفة. وهذا التطور الأخير جعل ابن عباس يستأذن عليّا في محاورتهم، وقد رجع منهم ألفان بعد أن حاججهم في الشبهات التي علقت بأذهانهم. وقد جرت محاورات أخرى من قبل الصحابة والتابعين مع الخوارج مما؛ أدى إلى

تقليص أعدادهم إلى أربعة ألاف فقط. إلا أنهم اجتمعوا في دار عبد الله بن وهب الراسبي، وأرادوا مبايعة أحد زعمائهم أميراً، فلم يقبلها أحد منهم، ثم قبلها عبد الله بن وهب الراسبي؛ وبذلك نكثوا بيعتهم لعلي ﷺ، وذلك في العاشر من شوال سنة 37هـ، ونقضوا مبدأ "الخلافة في قريش"، فصار من مقولاتهم جواز خلافة غير القرشي.

وقد خرج عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي بأتباعه إلى النهروان خفية؛ لئلا يصدهم أحد واجتمعوا هناك، ورغم هذا التحدي فلم يقرر علي ﷺ مناجزتهم وإعادتهم إلى الطاعة بالقوة، بل اكتفى بتوضيح خطئهم وتفنيد آراءهم. وقد أرسل علي ﷺ إليهم الرسل يدعونهم، فقتلوا رسوله، وعبروا إليه النهر، فأمر بقتالهم. واشتبك الجيشان في معركة خاطفة وغير متكافئة، انتهت بالإجهاز على الخوارج رغم ما أبدوه من جلد وشجاعة، فقد أفناهم جيش علي الكبير دون أن يصيبوا منه إلا بضعة عشر رجلاً. ولم يعش من جيش الخوارج إلا الجرحى ومن فرّ وهم عدد يسير.

ولا شك أن وقعة النهروان تركت جراحاً أليمة في الكوفة العلوية الاتجاه والبصرة العثمانية معاً، حيث ينتمي معظم الخوارج إلى قبائل المدينتين، وقد نعى البعض على علي ﷺ دماء أهل النهر، ووقعت بينهم وبين علي معارك صغيرة. وتعدى الوهن أقارب الخوارج إلى جملة الجيش الذي تحمل ذكريات صفين الأليمة، وقد تجددت الذكريات في حرب الخوارج بالنهروان؛ فلم يجد علي فيهم النشاط لقتال معاوية. بينما أفاد معاوية من هذه الظروف التي أحاطت بخصمه، فمدّ نفوذه إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص وبالتعاون مع العثمانية فيها، مما أضاف إليه قوة بشرية واقتصادية، كما راسل وجوه القادة في العراق محاولاً استمالتهم.

وأمام الوهن والشقاق وضعف الطاعة في جيش علي ﷺ، لم يتمكن من القيام بأية حملة ضد القوات الشامية، وتبين خطبه الأخيرة مدى ما عاناه من الملل والألم إذ كان يقول: "اللهم إني قد سئمتهم وسئموني، ومللتهم ومللوني؛ فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته". فكانت هذه الإشارة بأن ثمة من يسعى لقتله، أول إعلان عما بلغه من محاولة عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي قتله، وكان قد حذَّر من التآمر لقتله، بحيث "جاء رجل من مراد إلى علي ﷺ وهو يصلي في المسجد، فقال: "احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك".

وقد كان عدد من الخوارج ارتأوا أن حلّ مشكلات المسلمين يكمن في القضاء على ثلاثة، قدّروا أنهم سبب خلاف المسلمين هم: علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص، فقرّروا قتل الثلاثة في ليلة واحدة، فنجح قاتل علي ﷺ وفشل الآخران. بحيث طَعن ابن ملجم علي ﷺ في صلاة الفجر صبيحة إحدى وعشرين من رمضان سنة 40هـ. ولم يمت حتى أوصى بقاتله خيرا: "إنه أسير فأحسنوا نُزُله وأكرموا مثواه، فإن بقيتُ قتلتُ أو عفوتُ، وإن متُّ فاقتلوه قتلتي ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".

وبعد اغتيال الخوارج له (علي ﷺ)، تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية، لينهي مرحلة الصراع وعودة الأمة إلى الجماعة بعد أن مرَّت بتجارب جديدة قاسية تركت آثارا عميقة في المخيلة الجماعية لأجيالها المتلاحقة حتى الوقت الحاضر.

حركة الفتوحات الإسلامية عصرَ الخلافة الراشدة

1- الفتوح في خلافة الصديق ﷺ:

1-1- فتح العراق والشرق:

كانت قبيلتا شيبان وسدوس من بني بكر بن وائل، تسكنان في القسم الجنوبي من العراق، وكان المثنى بن حارثة الشيباني يتزعم قبيلة شيبان ويغزو بها مناطق الحيرة، كما كان قطبة بن قتادة السدوسي يتزعم قبيلة سدوس ويغزو بها أطراف الأبلة التي كانت الميناء الرئيسي للعراق على الخليج العربي، ولم تكن هذه الحركات مرتبطة بالمدينة، بل كانت مستقلة؛ ولذلك أرسل أبو بكر الصديق ﷺ خالد بن الوليد وعياض بن غنم إلى العراق ليتوليا قيادة الجيوش فيه، على أن يفتح عياض دومة الجندل التي انتقضت على أبي بكر ثم يمضي إلى الحيرة، وأيهما دخل الحيرة قبل الآخر تولى القيادة العامة في العراق. سبق خالد إلى العراق وضم إليه جيش المثنى وبدأ بتنظيم الحركات العسكرية، فكانت أولى الوقائع بينه وبين الفرس في منطقة الحفير قرب الخليج العربي، وقد انتصر فيها خالد على هرمز القائد الفارسي، وتسمى المعركة بذات السلاسل؛ لأن الفرس اقترنوا بالسلاسل، كما تسمى غزوة كاظمة باسم القرية التي دارت قربها. وقد تملك الفرس في هذه المرحلة أردشير فحشد جيشا بقيادة قارن فالتقى به خالد في المذار وألحق به الهزيمة وقتل من الفرس عددا كبيراً.

وقد استفاد خالد من انشغال الفرس بالاضطراب في البلاط عقب موت أردشير، حيث تعاقب على العرش بعده عدد من الأمراء والأميرات؛ فقصد الحيرة عاصمة العراق العربي، وبعد حصار عنيف صالح خالد سكانها على الجزية، واتخذ الحيرة معسكرا لجيشه، وأرسل عدة حملات إلى أطراف الحيرة لإقرار الأمن فيها، وقد صالحه الدهاقين في المنطقة. وبعد فتح الحيرة قصد خالد إلى الأنبار فحاصرها، وكانت محاطة بخندق فرمى فيه الإبل ليجتاز إليها، لكن شيرزاد الحاكم الفارسي صالحه على أن يسمح له بمغادرتها. ثم قصد خالد إلى عين التمر على أطراف بادية الشام، حيث تجمعت قبائل تغلب والنمر وأياد والفرس بقيادة مهران بن بهرام جوبين، فحاصرها حتى نزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وغنم الأموال. وبعد أن صال وجال خالد استطاع السيطرة على سائر العراق العربي. ثم قصد خالد إلى الفِراض: وهو تخوم العراق والشام والجزيرة؛ فاجتمع عليه العرب والفرس والروم فقاتلهم وانتصر عليهم، ثم رجع إلى الحيرة حيث جاءه أمر أبي بكر الصديق ﷺ أن يأخذ نصف الجيش ويتجه إلى الشام لمساعدة المسلمين هناك ضد الروم، وبقي المثنى بالنصف الآخر في العراق.

1-2- فتوح الشام:

وجه أبو بكر ﷺ خالد بن الوليد مع نصف الجيش الذي كان في العراق لمساعدة المسلمين في الشام، وقد قطع خالد الصحراء بسرعة خارقة واتصل بجيوش المسلمين في اليرموك، بعد أن فتح في طريقه إليهم بصرى وبعض الواحات التي مر بها. وقد اجتمعت جيوش المسلمين تحت قيادة خالد بن الوليد، ثم دارت رحى معركة هائلة، وقد استبسل المسلمون واستشهد عكرمة بن أبي جهل، وقاوم الروم بعنف ثم هرب بعضهم، ومعظمهم هوى في وادي الواقوصة، فكان قتلاهم ألوفا عديدة. وكان جيش المسلمين يضم ألفاً من الصحابة بينهم مائة بدري. وقد غادر هرقل على إثر الموقعة مدينة أنطاكيا وودع سوريا الوداع الأخير، وفتحت الطريق أمام المسلمين للانسياح في بلاد الشام، وفي أعقاب اليرموك توفي أبو بكر ﷺ وتولى الخلافة عمر ﷺ.

2- الفتوح في خلافة الفاروق ﷺ:

2-1- فتوح العراق والشرق:

بعد مغادرة خالد بن الوليد العراق إلى الشام؛ اضطر المثنى إلى الانسحاب من المنطقة المفتوحة إلى الصحراء لعدم تمكنه من مواجهة الفرس بقواته القليلة، خاصة بعدما استبد رستم بشؤون الدولة

والجيش، وبدأ رستم تنظيم مقاومة ضد المسلمين، وقد استمد المثنى بن حارثة عمر بن الخطاب ﷺ؛ فأرسل عمر أبا عبيد بن مسعود الثقفي ومعه عشرة آلاف مقاتل، ولما وصل العراق كان رستم قد استثار الدهاقين في السواد فثاروا بالمسلمين كما أرسل ثلاثة جيوش أحدها بقيادة جابان والآخر بقيادة نرس والثالث بقيادة الجالينوس، وتمكن أبو عبيد من هزيمة الجيوش الثلاثة قرب الحيرة وكسكر والسقاطية على التوالي، وأعاد احتلال السواد وصالح الدهاقين.

وقد حفزت هزائم الفرس رستم؛ فعبأ جيشا كبيرا بقيادة بهمن جاذويه ذي الحاجب يساعده الجالينوس، ومعهم الفيلة وراية كسرى، والتقى الجيشان على الفرات بقس الناطف؛ وفي بدء المعركة رجحت كفة المسلمين، لكن الفيلة أرعبت، خيلهم وخبطت أبا عبيد فقتلته، وانهزم المسلمون، وقام أحدهم بقطع الجسر؛ ليمنع الهزيمة لكنه أخطأ وزاد خسائر المسلمين التي بلغت أربعة آلاف بين قتيل وغريق، ثم أُصلح الجسر وعبر المسلمون. لقد كانت الهزيمة قاسية حتى لحق بعض المسلمين بالمدينة وبقي بعضهم بالبوادي يغلبهم الحياء. وكان لابد للمسلمين أن يثأروا للجسر، وبدأ الخليفة عمر ﷺ يحشد الجيوش لهذا الغرض، فكانت معركة القادسية في 15هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص ﷺ، وأما الفرس فيقودهم رستم بجيش جرار معهم 33 فيلاً. ثم دارت رحى المعركة في القادسية ثلاثة أيام، كان النصر فيها حليف المسلمين، وقُتل رستم وانهزم الفرس.

وفي سنة ست عشرة فتحت الأهواز والمدائن، وأقام بها سعد الجمعة في إيوان كسرى، وهي أول جمعة جمعت بالعراق، وذلك في صفر، وفيها كانت وقعة جلولاء، وهزم يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى الري، وفيها فتحت تكريت. وفي سنة إحدى وعشرين كانت وقعة نهاوند وفتحها، وهي وقعة عظيمة جدا، كان المسلمون يسمونها فتح الفتوح. وفي سنة اثنتين وعشرين فتحت أذربيجان عنوة، وقيل: صلحًا، والدينور عنوة، وماسبذان عنوة، وهمذان عنوة، والريّ، وعسكر، وقُومِسَ. وفي سنة ثلاث وعشرين كان فتح كرمان، وسجستان، ومكران من بلاد الجبل وأصبهان ونواحيها. وتمكن الأحنف بن قيس من التوغل في خراسان الإقليم الشمالي الشرقي من بلاد إيران.

وهكذا تم فتح بلاد إيران في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وأقام المسلمون المسالح في شتى أرجائها متوقعين انتقاض الفرس في هذه الديار، لقد كانت فتوح المشرق عنيفة اقتضت من المسلمين تضحيات جسيمة بسبب اختلاف الدم، فسكان إيران فرس لا تربطهم بالعرب لغة ولا جنس ولا ثقافة، وكان الشعور القومي عند الإيرانيين يذكيه التاريخ الطويل والثقافة المتأصلة، كما أن القتال

كان يدور في صميم الوطن الإيراني ويشرك رجال الدين المجوس في تأليب السكان على المقاومة، يضاف إلى ذلك بُعد هذه المناطق عن مراكز الجيش في البصرة والكوفة، وطبيعة الأرض الجبلية التي تُمكن السكان من المقاومة؛ ولذلك فقد انتقضت معظم هذه المراكز، وأعيد فتحها في خلافة عمر أو في خلافة عثمان رضي الله عنهما.

2-2- فتوح الشام:

بدأ عمر ﷺ خلافته بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة في الشام، وولاها أبا عبيدة عامر بن الجراح. ففي سنة أربع عشرة فتحت دمشق ما بين صلح وعنوة، وحمص، وبعلبك صلحا، واتجه خالد إلى قنَّسرين قرب حلب ففتحها عنوة، وفتح عياض بن غنم حلب صلحا بعد أن حاصرها. وفي الوقت الذي عمل أبو عبيدة وخالد بن الوليد وعياض بن غنم على فتح سوريا والجزيرة، كان عمرو بن العاص يتقدم في أرض فلسطين، فعلى إثر موقعة أجنادين 13هـ اعتصم أَرْطبون بحصون بيت المقدس؛ فاتجه المسلمون إلى فتح مدن الساحل، ففتحوا رفح وغزة وسبسطية ونابلس واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا، بعضها عنوة وبعضها صلحا.

ثم اتجه عمرو بن العاص إلى بيت المقدس فحاصرها طويلا، ولما أدرك أهل القدس قوة الحصار وانقطاع الأعداء عنهم لاستيلاء المسلمين على مدن الساحل رغبوا في الصلح، واشترط سفرونيوس بطريق المدينة أن يتولى الصلح الخليفة عمر ﷺ بنفسه ليكون أوكد، فقدم عمر بنفسه إلى الجابية، وكتب كتاب الصلح للقدس، وسلمت مفاتيحها إليه، أما أَرْطبون قائد حامية القدس فانسحب إلى مصر. وهكذا تم فتح بلاد الشام في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وقد غادر البيزنطيون ولحق بهم أتباعهم من أهل البلاد.

2-2- فتوح مصر والمغرب:

لما استكمل عمر فتح الشام، بعث عمرو بن العاص إلى مصر، فاتجه بجيشه إلى العريش واحتلها دون مقاومة، ثم اصطدم بعد ذلك بأرطبون وهزمه. وتقدم إلى حصن بابلِيون حيث تعتصم قوات الروم بقيادة نيودورس ورئاسة المقوقس الذي عينّه الروم بطريرقا على الإسكندرية ووالياً على مصر، وعسكر المسلمون في عين شمس، وجاءهم مدد الخليفة بقيادة الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت، فتقدموا إلى حصن بابليون وحاصروه، وطال الحصار لمناعته، وكان الروم يخرجون منه فيقاتلون ويعودون، ثم غلبهم المسلمون خارجه وفر ثيودورس إلى الإسكندرية واحتمى

المقوقس بالحصون. وبعد حصار سبعة أشهر فاوض المسلمين على الصلح، على الجزية للقبط، والخيار للروم. وبعد سقوط حصن بابليون فتح الطريق أمام المسلمين للاستيلاء على مصر السفلى حيث لم يلقوا مقاومة عنيفة، كما اتجهوا نحو الإسكندرية في الشمال، وبعد حصار طويل للمدينة صالح المقوقس المسلمين عليها، على الجزية لمن شاء البقاء ولا يمنع من يريد الالتحاق بالروم. وهكذا سيطر المسلمون على الإسكندرية، وبدأوا بإنشاء الفسطاط وحفر قناة بين النيل والبحر الأحمر.

وفي سنة إحدى وعشرين سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة، فصالحه أهلها على الجزية وأن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا بيعه. فلما فرغ من برقة سار إلى طرابلس الغرب، فحاصرها شهرا فلم يظفر بها، وكان قد نزل شرقيها، فخرج رجل من بني مدلج يتصيد في سبعة نفر، وسلكوا غرب المدينة، فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر، ولم يكن السور متصلا بالبحر، وكانت سفن الروم في مرساها مقابل بيوتهم، فرأى المدلجي وأصحابه مسلكا بين البحر والبلد فدخلوا منه وكبّروا، فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم؛ لأنهم ظنوا أن المسلمين قد دخلوا البلد، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة وسمعوا الصياح، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد، فلم يفلت الروم إلا بما خف معهم في مراكبهم؛ وبهذا تم للمسلمين فتح طرابلس عنوة سنة 22هـ.

3- الفتوح في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

في ناحية الشرق، انتقضت بعض الولايات الإيرانية على المسلمين، فأعادوا فتحها في خلافة عثمان رضي الله عنه، ففي سنة 31هـ انتقضت خراسان، فتقدم إليها عبد الله بن عامر بجيش من البصرة وأعاد فتح مدنها: مرو ونيسابور ونسا وهراة وبوشنج وباذغيس ومرو الشاهجان. ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فاجتمع عليه أهل مرو الروذ والجوزجان والطالقان والفارياب والصغانيان، ففتح هذه البلاد بعضها صلحا وبعضها عنوة، وحاول فتح بلخ فلم يتمكن، ثم عبر نهر جيحون؛ فصالحه أهل بلاد ما وراء النهر. ثم استخلف عثمان قيس بن الهيثم بدل الأحنف، فتوغل في طخارستان وفتح مدنها، وكذلك فتح سعيد بن العاص بلاد طبرستان وصالحه ملك جرجان، وثارت أذربيجان فغزاها الوليد بن عقبة وأعادها إلى الطاعة، وكذلك تم فتح أرمينية في خلافته رضي الله عنه.

وأما الفتوح في جهة الغرب، فقد تم إعادة فتح الإسكندرية، بعد أن عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 27هـ؛ فثارت الإسكندرية على المسلمين وأرسل الإمبراطور قسطنطين أسطولا حربيا بقيادة منويل الخصي الأرمني، فاحتل

الإسكندرية وتقدم في الأرض المصرية، فأعاد عثمان عمرو بن العاص على قيادة الجيش، فتمكن من طرد الروم وفتح الإسكندرية ثانية وهدم أسوارها. وفي خلافته ﷺ، توجه عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة السودان، لكنه لم يتمكن من التوغل فيها، ثم صالحهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وتبادل معهم الهدايا.

وقد أرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح يستأذن عثمان بغزو أفريقية، فأرسل عثمان جيشا من المدينة فيه أعيان الصحابة، وتولى قيادته ابن أبي سرح أولا، ثم ولّي عليه الزبير بن العوام فتمكن من إحراز النصر على جرجِير ملك أفريقية، وأحرز غنائم وعاد، فلم تكن غزوته فتحاً منظما. وتمكن الأسطول الإسلامي من إحراز نصر على أسطول الروم في موقعة ذات الصواري في البحر المتوسط على مقربة من الإسكندرية سنة 34هـ. وقد استولى المسلمون على بعض سفن الروم فأضافوها إلى أسطولهم.